Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

W. Arthur Jeffery

893.7K84
DK4
V.1

الطبعة الأولى
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م
حقوق الطبع محفوظة

18916G

بسم الله الرحمن الرحيم

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

تقريظ

هذا كتاب الله قد فسرته بطريقة تسمو على الأشباه
إذ لم أؤول ظاهر الألفاظ أو ما قد تشابه من كلام الله
بل قد بسطت اللفظ والمعنى بما من شأنه تذكير من هو لاه
وبحثت في المغزى مآخذ ما أرا ال أحكام منه أوامر ونواهي
وأشرت فيه إلى القراءات التي وردت لنفظه كل من هو ساه
وسألت مولى فناء في هوا ه فلا أعيش بغير حب الله
ولقد وثقت بأنه سيجيبني وغدوت أطري حمده وأباهي
وأقيس ما يأتي على ما قد مضى وأظل مغتبطا بعيش زاه
أفلا تجيب مطالبي يا من يجيـ ـب السائلين وأنت مصدر جاهي
حاشا لجودك لا يحد وإنني "عبد" وإنك يا "حميد" إلاهي
فامنن وجد لي بالقبول وبالرضى واجعل شفيعي ذا الجمال الباهي
فخر الوجود محمدا صلى عليـ ـه إلاهنا المولى العظيم الجاه
والآل والأصحاب يا من فضله فينا قديم ليس بالمتناهي

الخطيب

30456G
MAR 18 1961
M.K

هذا بلاغ

للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله
واحد وليذكر أولوا الألباب.
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم
ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات
أن لهم أجرا كبيرا.
كتاب أنزلناه إليك مبارك
ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب.
تنزيل من رب العالمين.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذى خلق الجنّ والإنس لعبادته ، وجعل الأرض والسماء آيات بينات على قدرته ، وأرسل الأنبياء والمرسلين لتبليغ رسالته ، وأنزل الكتاب لبيان شريعته ، وسنّ الإرشاد للدلالة على عظمته ، ودعا العباد إلى مايقرّبهم من حضرته ، والصلاة والسلام على خاتم رسله ، وصفوة أنبيائه «محمد» بن عبدالله، الذى اصطفاه ربه من البشر واجتباه ، وعلى آله وأصحابه نجوم هدايته وشموس شريعته .

أما بعد : فقد أنزل الله القرءآن بلاغا من لدنه للناس أجمعين ، وأمرهم بالإصغاء إليه ، وتدبر معانيه ، وإمعان النظر فى مغزاه ومراميه ، ليسيروا فى حياتهم وفق قوانينه ، وعلى ضوء إرشاداته وتعاليمه ، وليتعظوا بما جاء فيه من قصص الأولين ، وما اشتمل عليه من العبر والعظات التى لاتخفى على الأذكياء النابهين ، وليحذروا مما أخبر عنه من أهوال يوم الدين ، وليعملوا لإدراك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يسمعون القرءآن ويتفهمونه على هذا الاعتبار ،

فتأخذهم الخشية من الله الجبار ، ويؤثر الخشوع فى نفوسهم ، وتستولى المؤثرات الفعالة على عواطفهم ، وتتغلب العبرات على مشاعرهم ، فيمضون لتنفيذ أمر ربهم والعمل على مرضاته ، ويتدارسون القرآن ، وينظرون فيه نظرة المتبصر الحكيم ، فيستنيرون بأحكامه ويسترشدون بمنار تبيانه ، ويأتمرون بأوامره ونواهيه ، ومقاصده ومراميه ، فتأخذهم الرهبة فيذعنون ، وتشملهم الرحمة فيخشعون ، وعلى ربهم يقبلون ، فيتذاكرون ويذكرون والإيمان رائدهم ، ويتفاهمون فيفهمون والصدق حديثهم ، والذكرى تنفع المؤمنين .

أجل إنهم اعتبروا القرآن قائداً لهم فى الحياة فطبقوه فيما بينهم وبين الله وبينهم وبين سواه ، واستسلموا لأحكامه فى أحوالهم الشخصية ، وتأدبوا بآدابه ، وتخلقوا بخلقه ، وساروا على منهاجه ، فاندفعوا إلى طاعة الله واجتنبوا نواهيه ، بباعث نفسى ونية خالصة ، ورغبة فى الخير لمجرد الثواب وبعداً عن الشر خوفا من العقاب ، بقلوب ملؤها حب الله ، والخوف من غضبه ، وبذلك تمكن الإيمان من قلوبهم ، حتى سادوا العالم وفتحوا الأمصار ونشروا الدين فى كل مكان ، وتم لهم بذلك النصر والسلطان .

ولقد عنى الفقهاء والعلماء والمجتهدون باستنباط الأحكام من بعض آى الذكر الحكيم ، وخرّجوا الفروع من الأصول ، ودونوها فى كتبهم ، فيسروا للناس طريق الاتباع والاقتداء ، وبينوا لأمتهم الشريعة السمحاء كما بلّغها صاحب الرسالة الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ودوّنوا حدود الحلال والحرام والحق والباطل ، وأوضحوا للعالم الإسلامى الأوامر والنواهى على اختلاف أنواعها ، وقاموا بما عهد إليهم من أداء الرسالة على الوجه الأكمل

وبالطريق المشروع ، وكانوا فى جميع أمورهم مع الله باتباع القرءآن الكريم فكان الله معهم ، ووحدوا كلمتهم ، ونظموا صفوفهم ، فأخذ الله بأيديهم وآزرهم ونصرهم نصرا عزيزا ، وأمدهم بروح من عنده ومنحهم الحسنى وزيادة ، ولم يجعل للأمة الإسلامية لنيل مجدها حدا محدودا أوأمداً موقوتا، بل قضت إرادة الله أن الأمة التى تجعل القرءآن إماما لها وقانوناً لأعمالها ودستوراً وميزاناً لجميع شئونها لا تسقط من عرش مجدها وعزتها إلا إذا مالت عن الحق وهجرت كتاب الله ولم تتَّبع أسراره وحكمه ، وتجافت عن تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أجل إن أسرار القرآن لتنكشف للباحثين ، وأحكامه تتبين للناظرين ، و بلاغته وفصاحته تظهر للمفكرين ، ألا إن للقرءآن سلطاناً وقدسية على النفوس ، وله من قوة التأثير ما تخر له الرءوس ، ومن الأسرار الربانية ماهو محسوس وملموس ، ففى القرءآن من القصص الصادقة ما يصور للناس مصير الظالمين ، وفضيلة التمسك بالدين ، والاعتماد على رب العالمين ، وفى القرءآن ما يعلم الناس كيف يكون الجهاد لنصرة الحق ، وما تقتضيه سنة الله فى الخلق ، وثمرة الثبات ونتيجة الخيانة ، ومزية التوحيد ، وعاقبة الموحدين ، بشتى الطرق فى الترغيب والترهيب ، بأسلوب رائع وعبارة جذابة ، أنزلها الله من عنده ، فهى كفيلة بتذكير القلوب بباريها ، واستمالتها إلى خالقها وهاديها ، لو أنها تليت على الناس على حالتها ، وكانوا على علم تام باللغة ، تمكنهم من فهمها واستخراج العبر من بين ثناياها ، فالله سبحانه وتعالى قد أنزل هذه الآيات فى منتهى البلاغة والإعجاب :

آيات حق بها أوحى الأمين إلى ... فخر النبيين عما خُط بالقلم
وما يلوح من الذكر المنزه عن ... ريب ومن يدّعى الإنكار فهو عمى
محكماتٌ تعالى الله منزلها ... أكرم بأول من قد قالها بفم
أعيت فصاحتها الألباب فانبهرت ... لها وآمن منها صاحب الفهم
وقد تحدى بها أفذاذ أمته ... فأذعنوا أنها من قول ربهم
لها معانٍ سمت لم يدر غايتها ... إنسٌ تشعُّ مع الأيام بالحكم
فيها المواعظ والأمثال شاخصةٌ ... وهى الأساس لما فى الشرع من نُظم
فيها الحقائقُ عن أخبار من سلفوا ... وعن مصير الورى من بعد مُزدحم

***

ومما يؤسف له أننا فى عصرنا هذا عصر الحضارة والعلم ، قد أهملنا أمر دراسة القرآن دراسة تدبر وفكر ، ولم ننظر إلى قوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » وقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ . أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ »

وقوله تعالى : « وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » .

أجل لقد اكتفينا بتلاوة القرءآن لمجرد التعبد والبركة ، لا للموعظة والهداية ، وتنوير الأفكار من الغواية ، ولم نتأمل فى مثل هذه الآيات حتى قست القلوب ، و بعدت عن علام الغيوب ، وتقلص الإيمان ، وتلاشت التقوى ، وانهارت معالم الدين ، ومادت رواسى الحق واليقين ، وتقوضت مكارم الأخلاق ، واندثرت محاسن الآداب ، وقد حل بالأمة الإسلامية الذل والهوان ، والفقر والضعة فى كل مكان ، بعد أن كانت لها العزة والكرامة ، والسيطرة والمهابة ، فبتقصيرنا فى دراسة القرءآن والاهتداء بهديه أطفأ نور الإسلام ، و بأعمالنا حقت علينا كلمة العذاب ، وأصبح المسلمون اليوم فى معزل تام عن الائتمار بأمر ربهم والانتهاء عن ما نهى عنه ، وأصبحنا فى وقت لا نفهم فيه ما يقول القرءآن ، ولا ما إليه يشير ، بل نحن عنه معرضون ، وعن حديثه لاهون ، و إن كنا لسماع ألحانه طربين ، وعلى حمله للبركة حريصين ، وأصبحنا فى وقت لا نحرص على الأخذ بما جاء فيه كحرصنا على الأخذ بأقوال العلماء والمفسرين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولقد صدق علينا قول ربنا : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » والدين يأمرنا أن نعمل على تلاوة القرءآن وتفهم معانيه ، واستخراج العبرة من بين ثناياه ، وتذكير الناس بما جاء فيه حتى تغمر القلوب بهديه ،

وتصلح السرائر بوعظه ، فإن إيقاظ القلوب و إصلاح السرائر هما من أهم ما يعنينا ، وهما خير ما يكفل لنا السعادة فى الدارين .

ولقد أخبرنا الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم من قبل بكل ما نحن فيه اليوم ، ووصف لنا سبيل الخلاص من ذلك حيث قال « يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى على القصعة أكلتها قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال لا بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قالوا وما الوهن يا رسول الله ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت » وقال أيضا « لازلتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتى فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتى » وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليمه التى انتصر بها المسلمون فى الصدر الأول ، والأسس التى أقاموا عليها عزهم ومجدهم ، وغلبتهم للشرق والغرب ، ليست سرا من الأسرار ، ولا هى فى يد فريق دون آخر من الناس ، بل هى بعينها لا تزال موجودة للجميع ، سليمة ظاهرة واضحة كما تركها الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تبديل أو تعديل ، وهى ما أشار إليها صلى الله عليه وسلم بقوله « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » وقوله « من اقتدى بكتاب الله لايضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة » ثم تلا قوله تعالى : « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى » وقوله « اعملوا بالقرءآن وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، واقتدوا به ، ولا تكفروا بشىء منه ، وما تشابه عليكم فردوه إلى

الله و إلى أولى الأمر من بعدى كما يخبركم ، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتى النبيون من ربهم، ليشفعكم القرءآن وما فيه من البيان ، فإنه شافع مشفع ، ماحِلٌ مصدّق ، ولكل آية من آياته نور إلى يوم القيامة » وقال على رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول « ألا إنها ستكون فتنة ، قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ــ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى الصراط المستقيم » .

ولقد أهملنا الاستفادة من هــذا القرءآن فحل بنا ما حل من الخطوب والأحداث ؛ وفى إمكاننا تدارك الأمر، والرجوع إلى سنة سيد الخلق بدراسة القرءآن والاهتداء بهديه لاستعادة ذلك الماضى المجيد ، والظفر بالسعادة والسؤدد العظيم ، فقد ورد فى الأثر « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

أجل لقد أهملنا الاستفادة من القرءآن ، وقصرنا فى واجبنا نحو هــذا الدين ، حتى أصبحنا فى مؤخرة الأمم وأضعف الشعوب ، وحتى أمسينا عرضة لنقد الناقدين من غير المسلمين .

فلقد حدثنى بعض المثقفين من المسيحيين قائلا : لا أدرى لماذا لا يعمل المسلمون على نشر الدعوة الإسلامية بواسطة كتابهم المقدس الذى بين أيديهم وهو (القرءآن) بأسلوب سهل يتيسر فهمه لكافة الناس ؟ فنحن المسيحيين نعنى كثيرا بالجمعيات التبشيرية لدين المسيح ولا عمل للقسيس إلا تلاوة الإنجيل للناس ، وتفسيره لهم وحضهم على اتباع ما جاء به ، أما أنتم أيها المسلمون فعلماؤكم قد انصرفوا عن الدعوة الإسلامية ولم يعنوا إلا بالكتب الفقهية من وضع الأئمة الأربعة وغيرهم ، وهى فى الواقع لا تؤدى ما يؤديه القرءآن لو سهل تناوله ، ونظمت طرق الاستفادة منه ؛ وهو إلى جانب هذا يكاد يكون لغزا من الألغاز فى شكله ومعناه ، حتى إن كثيرا من المسلمين لا يستطيعون تلاوته من غير طريق شيخ من شيوخ الدين ، إذ هو فى رسمه لا يكتب إلا برسم المصحف العثمانى ، وهو مغاير لقواعد الرسم المتعارف فى هذا الزمان بين الناس فإذا قرأه غير المسلم بل وغير القراء من الفقهاء ، لا يمكنهم أن يتلفظوا به ولا بأسلوبه العربى المبين .

وأنتم بهذا تحولون بين القرءآن والناس وكأنكم لا تريدون أن يهتدى به أحد من غير المسلمين ، وكأنكم تقصدون أن يستأثر به الخاصة من العلماء ليس إلا ، والله سبحانه وتعالى لم ينزل القرءآن إلا للناس كافة ، بل ربما كان العامة من الناس هم المقصودون بالهداية ، أضف إلى هذا أن التفاسير المتداولة بين الناس متمشية على طريقة القُدَامى الأولين وعلى أنواع مختلفة الأوضاع والأساليب ، فمنها المختصر الذى لا يفيد ومنها المطول الممل ، والذى جمع كل شىء إلا التفسير وجلها لا تتلاءم مع عصرنا هذا (عصر السرعة)

وقد ملئت تلك التفاسير بمصطلحات العلوم الفقهية والنحوية والصرفية، وبالأصول وعلم الكلام ، والبلاغة من المعانى والبيان والبديع ، علاوة على ما هنالك من الإسرائيليات وأقاصيص المهرجين وأباطيل المبتدعة المخالفة للصدق ، والخارجة عن المعقولات ومواطن الحق . وقد تناقلها المفسرون حتى ظنها الكثير من الناس حقيقة لاريب فيها ، وأنها من أساس الدين. وإن عصرنا المتحضر يتطلب روحا حديثة وعبارات تتناسب مع الزمن وأهله وتتفق مع مستوى الجيل الجديد وعصره المتحضر .

أما الأسلوب القديم وما كانوا عليه فى العصور الخالية فإنه وضع لعصر غير عصرنا وزمن غير زمننا ولماذا لاتكتبون القرءآن حسب ماتقتضيه قواعد الرسم والمخطوطات الحديثة لينتفع به المسلمون وغيرهم وليفهموا كلام الله وأسراره وتتجلى لهم معجزاته ؟ وهل لا يوجد من العلماء من يفسر لنا كلمات القرءآن ومفرداته اللّغوية ، ويشرحها شرحا وافياً على حقيقة ماهيتها بحسب ما يفهمه العربى الصميم عند سماعه لآى الذكر الحكيم ، ويرشدنا إلى أسباب الاختلاف فى الأحكام الدينية باختلاف المذاهب ، ما دام المرجع والأصل للجميع واحدا وهو القرءآن ؟ .

لكل هذا أخذتنى الغيرة الدينية على الإسلام والمسلمين ، وفكرت طويلا فى وضع هذا التفسير لاعتقادى الصحيح ويقينى الصادق بأن القرءآن إنما أنزل ليكون قانوناً ودستوراً ومنشوراً إلهياً للعالم أجمع من قِبل مالك الملك وصاحب السلطان العام ، والحكم المطلق رب العالمين . قال تعالى : « هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ » فمن اللازم على كل فرد أن يستمع لهذا البلاغ والنداء ،

باعتباره موجهاً إليه، ومن الواجب على كل إنسان أن يتدبره و يعمل بمقتضاه فإذا ما أذيع ونشر هذا (البلاغ) بين الأنام بعد أن توضح كلماته ومعانيها على الوجه المطلوب ، وتلقاه الناس على اختلاف أجناسهم ونحلهم على هذا الاعتبار ، وفهموه كما فهمه العربى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كفيل باستنارة العقول وطهارة القلوب ورقى النفوس وسموّ الأرواح . فالقرءآن الكريم يكشف عن البصر والبصيرة، وينقى السر والسريرة، ويدفع إفك الأفاكين ودس الدساسين من الزنادقة والملحدين ، فبالقرءآن تتجافى النفوس عن التعصب الممقوت ، وتبلغ به أسمى الغرض المقصود لتوحيد الرب المعبود ، والإقرار والإذعان بصدق صاحب الشريعة الإسلامية النبى الأمى صلى الله عليه وسلم .

أجل إن القرءآن الكريم بأسلوبه الحكيم، صالح لكل زمان ومكان والتدبر والتفكير فيه يأخذان بزمام القارئ الكريم إلى إيجاد أسمى المعانى وأرقى الأساليب ، و يؤديان إلى الوقوف على أسراره الإلهية وحكمه الربانية والقرءآن كفيل بالهداية الشاملة والخير العام والإصلاح النافع ، لأن يجعل الأمة الإسلامية فى المستوى اللائق بكرامتها ، وفى المنزلة السامية لأصالة محتدها ؛ فالأمة المحمدية عريقة المجد ، دينها الإسلام ، ودستورها القرآن ، فبعظمته و إعجازه وقدسيته يبلغها ما تريد وما ترضاه لنفسها من خير دائم وعز مقيم .

حقيقة القرءآن و معجزاته

لا غرو فى هذا فإن كتابها ... هو خير ما يدعى (بموسوعات)
جمع الفضائل فى ثناياه وما ... تصل العقول إليه بالفِكْرات
هو (ندوة) علمية رمزت إلى ... كل العلوم ومنتهى الحِكْمات
هو (آية) فيها المعانى والبيا ... ن تمثلا فى أخصر الكلمات
وكذا البلاغة والبديع بحيث أع ... يت مدعى هذين من نسمات
حتى أقروا أنها من ربهم ... إذ لم يجاروا أصغر السورات
هو (معجم) للغات يعرب كلها ... ولها أشار تعدد الصيغات
هو (خير تاريخ) لمن سبقوا من الـ ... أمم التى مرت مع الحقبات
مع ما هنالك من مواضع عِبرةٍ ... و إشـــارة لوسائل الخيرات
وخلاصةُ الأخبار تشريعٌ لنا ... ودلالةٌ لله بالمثـــلات
هو (خير ما يدعو الفتى) لإلهه ... بأدلة لا تقبل الريبـــات
هو (حجة المولى) يقدمها لمن ... رام القناعة دون ما إعنات
هو (دعوة للناس) من رب الورى ... بتعطف و بمنتهى الرأفات
هو (خير إنذار) لكل معاند ... قد صيغ فى شىء من الرحمات
هو (خير بشرى) أنزلت للمتق ... ين بمنتهى سعد وبالجنات
هو (خير هاد) للأنام لكُلِّ مَا ... فيه صلاحهم من الطاعات
هو خير (دستور) لأحكام العبا ... د و بعضهم ومع العلىِّ الذات
هو (خير معجزة) لأمّي أتت ... شهدت له بالعلم والحكمات

وبحسن أخلاق وعظم ثقافة وفصاحة فى النطق بالكلمات
ورجاحة فى العقل والتفكير مع حزم وإقدام وخير صفات
هو من حكيم ليس يعزب عنه من أمر الورى شىء من الحالات
الله أنزله فلا يأتى إليـ ـه باطل من أيما وجهات
والله ربى لم يفرط فيـه من شىء تعالى واسـع القُدْرات
والله نزله يبين كل شى ء كان أو سيكون للميقات
وقد احتوى مافى الزبور من العلو م وما بإنجيـــلٍ مع التوراة
إذ أنه هو آخر الكتب التى قد أنزلت من مالك الميقات
وأتى يصدق ما بها وجميعُ ما قد جاء فيه جوامع الحكمات

القرءآن كلام الله[1]

لاغرو إن عجز الورى عن مثله نظما ومعنى أو هدى وعظات
هو من كلام الله يسره لنا بلساننا بالنص فى الآيات
وأتى به جبريل نقلا عنه لا بتصرف فى الوحى للسورات
عربية آياته قد فصِّلت نزل الأمين بها على دفعات
إذ أنَّما التكليم منه حقيقة ثبتت لموسى ساعة الميقات
ناداه موسى استمع لى إننى أنا ربك المعبود فرد الذات

(١) يعتقد السلف الصالح رضى الله عنهم أن هذا القرءآن الذى نتلوه هو كلام الله بذاته. ويقول الخلف: إن كلام الله هو الكلام الأزلى القديم، وإن هذا القرءآن الذى نزل به جبريل عليه السلام إنما يعبر عن ذلك الكلام الأزلى القديم، لأن كلام الله ليس بحرف ولا صوت.

فأجاب لبيك استمعت فهل أرا ... ك فقال كلا وانظر الصخرات
فإذا استقرت عند مايبدو لها ... منى التجلى فارتقب رؤياتى
وبلحظة دكت وخر لهول ذا ... صَعِقاً ونادى تبت من رغماتى
ولقد غدا هـذا دليلا قاطعاً ... بسماع موسى الحرف والأصوات
لـكن بلا كيف فموسى لم يطق ... وصفا لما لايشبه الهيئات
هو منه حاشا أن نقول بخلقه ... صفة الكلام لصاحب الكلمات
وتلاوة التالين تحكى ذاك لا ... مما تعبر عن كلام ذاتى

وسيلة النطق بكلام الله

فالله ربِّى قد تكلم بالكلا ... م ولم يكن من مخرج ولهات
كلا ولسنا قط ندرك كنهه ... ويجعل عن شبه بمخلوقات
ولقـد حكاه أمينه لنبيه ... بالنص عنه بهـذه الأبيات
لا أنه هو محض معنى صاغه ... من عنده جبريل فى السورات
أو ما نرى الآلات فى أيامنا ... نطقت كلاما ليس باللهوات
تحكى به نصا للفظ الناس لا ... هو لفظهم بالحرف والأصوات
كلا وليس مغايراً لحـديثهم ... أبداً ولا يعزى إلى (المـكنات)
وكذاك ما (بالأسطوانة) مثبت ... كالنقش ليس كحرفهم بالذات
وبنقلنا لـكلام ربى إنمـا ... فى الخلق نشبه تلـكم الآلات
لـكن وسيلتنا إلى النطق المخا ... رج فهى تبدى الحرف والحركات
فإذا تلوناها تلونا آيهَ ... وكلامه نصًّا بلا مريبات

لـكنما قد كان ذاك بصوتنا وحروفنا والخط فى الورقات
وإذا نسبناه إليـه فإنمـا يعزى المقال لمنشىء القولات
وعليـه فالملفوظ قول إلهنا واللفظ كسب حناجر ولهات
هو ما به أوحى الإله لعبده إنشاءه المسطور فى الصفحات
وهو الذى فى الصدر محفوظ وما يجب التدبر فيه بالإنصـات
لاينســـبن لمن تلاه لأنه أصل وما التالوت غير روات

العقيدة فى كلام الله[1]

وهو الذى منه أخـذنا ديننا وبه سنبلغ أرفع الدرجات
إن ما اتبعنا فى العقائد سنة الـ هادى من التسليم والطاعات
فنقول ربى لا إله سواك يعـ ـبد فى الوجود وأنت فرد الذات
إذ أنت موجد هذه الدنيا ومن دانت له الأكوان بالطاعات
لم تتخذ ولدا ولا من والد لك أنت وحدك مجزل النعمات
ما من شريك فى الوجود ولاشفـ ـيع دون إذنك ساعة الميقات
ندعوك وحدك فى البلاء ونستعيـ ـن ونرتجى الغفران والرحمات
وكذاك نؤمن بالنبى محمـد عبداً رسولا جاء بالحـكمات
وكذاك نؤمن بالملائك إنهم لم يألفوا العصيان بالفطرات

(١) أجمع علماء المسلمين على أن عقيدة السلف الصالح أسلم عاقبة وأن كل خير فى اتباع من سلف ، لهذا رأينا أن نلخص عقيدتهم التى كانوا عليها والتزم العمل بها الأئمة الأربعة المجتهدون رضى الله عنهم . كما أنى أشرت إلى رأى بعض علماء الخلف فى ذلك .

ونقول آمنـــا إلهى بالذى أنزلتـــه فى محكم الآيات
إيمان من يؤمن بغيبك مسلماً لك كلما استعصى على الفكرات
ومصـدقا بالأنبياء وما به جاءوا من الإنجيل والتوراة
ويقيننـــا بالبعث لاينتابه وهن فثبتنا لبعـد ممات
وصلاتنا مع ميزة الإحسان وفـ قنا لها من واسع الرحمات

الاستواء فى كلام الله[1]

أنت الذى قد كنت قبل ولم يكن شىء سواك وأنت فرد الذات
لاعرشَ لا كرسىَّ لا ماءٌ ولا جوٌّ وليس هناك من نسمات
ما كان من فوقية أو ضـدها كلا ولا جهة ولا حالات
لـكن بخلق الـكون أصبح لازما تحـديده فى حيز بجهات
أحدثته وجعلت فوق سمائه عرشاً لملكك فى ذرى الذروات
ولك استواء لائق بك فوقه لسنا نـكيفه بمحسـوسات

---

(١) إن عقيدة السلف الصالح فيما يتعلق بالاستواء فى قوله تعالى (ثم استوى على العرش) أنه استواء لائق بجلال الخالق العظيم . ويقولون إلى جانب هذا ما قاله الإمام مالك رضى الله عنه عندما سئل عن كيفية الاستواء ، فأجاب بقوله : الاستواء غير مجهول ، والـكيف بالنسبة لله غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة : أى إنه لم يسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا السؤال ، فما يكون لمخلوق أن يسأل عن كيفية صفات الخالق . ويقول الخلف : إن المراد بالاستواء هو الاستيلاء .

العلو فى كلام الله (١)

ولقد سرى ليلا إليك محمد ... متخطيا سبعا من الطبقات
حتى دنا من قاب قوسين وقد ... بلغ النهى من أرفع الدرجات
وهنالك عند العرش كان خطابه ... حيث الملائك خشع الهامات
فلك العلو مؤكد لـكنه ... ما كان مقصورا على الرتبات
بل فوق ما يتصور الإنسان من ... معنى علو الذات والرفعات
أنت العلى وذاك وصفك ثابت ... وإليك يصعد طيب الـكلمات
أما نزولك للسماء فأنت يا ... مولاى تعلمـه بأى صفات
لـكننا ندرى نزولا لائقاً ... بجلال قدسك يا عظيم الذات

الصفات فى كلام الله (٢)

وكما وصفت الذات منك نقول ذا ... حق ونجزم فيـه بالإثبات
أولست قد أثبت فى القرءآن ما ... يرضيك من وصف ومن حالات

---

(١) عقيدة السلف فيما يتعلق (بالعلو) أنه سبحانه قد أثبت لنفسه العلو فيجب الاعتقاد بأنه فوق كل شىء حقيقة وفعلا .

ويرى الخلف أن إثبات العلو لله فيه معنى التحيز والتحديد — وهو محال على الله ، ولذلك يقولون إن العلو هو علو المرتبة .

وقد ورد فى الحديث الشريف (إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول هل من سائل فيعطى ؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ حتى ينفجر الصبح) وهنا قال السلف :

إن استواء الله على العرش بغير كيف فنزوله غير مكيف . ويجب الاعتقاد بصحة هذا بغير تكييف، بل نزولا لائقاً بعظمة الله وجلاله ويقول الخلف إن المراد ينزل أمر الله .

(٢) أثبت الله سبحانه لذاته فى القرءآن الـكريم بعض صفات من المتشابهات مثل قوله « يداه مبسوطتان » وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . يد الله فوق أيديهم . إنه هو السميع البصير . ولتصنع على عينى » .

ونفيت عنك من الصفات جميع ما ... يزرى برب مالك الميقات
قد قلت ليس كمثله شىء وقد ... قلت السميع ومبصر الحركات
أثبت أنك واحـــد لكنما ... حذرتنا من موضع الشبهات
والحى والقيوم قد أثبتـــه ... لكن نفيت النوم والغفلات
أفهل لنا تنزيه ذاتك بعد ذا ... عما يراد بهـذه الكلمات
كلا ولكنا نؤكد أنهـا ... ليست كما يبدو من الخطرات
إذ أنت رب وهى فيك قديمة ... جلت عن التكييف بالفكرات
والكون خلق والفناء مصيره ... وَصفاته معلومة الهيئات
فكما نقول السمع ليس كسمعنا ... فالوجه ليس كسائر الجبهات
بل ما يليق بذى الجلال إلهنا ... نلتذ من رؤياه فى العرصات
وكذا اليدان مع الحياة فإنها ... ليست كأيدينا ولا كحياة
حاشا نشبه أو نكيف أو نقو ... ل مقالة المرتاب ذى الغفلات
ونعطل الأوصاف ثم نحدها ... بتأول لظواهر الآيات
ونقول ثَمَّ عن الصريح كناية ... إن لم نكيفه بمرئيات

فرأى السلف الصالح فى هذا وجوب إثبات ما نسبه الله لنفسه من هذه الصفات من غير تكييف ولا تحديد — فقد قال تعالى «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ولأن العقول مهما بلغت من الإدراك والتفكر فهى عاجزة كل العجز عن تحقيق صفة أصغر المخلوقات كالبعوض مثلا وما هو فى عالم الأرواح والخفاء كالملائكة والجان — فكيف يمكن للبشر وقوة عاقليته محدودة أن يتصور صفات خالقه — ويقول الخلف : إن هذه من صفات المخلوقات فلا ينبغى بحال أن تنسب بحقيقتها إلى الخالق — فيؤولون هذه المتشابهات مثل « يد الله فوق أيديهم » بالقدرة والنعمة والعين بالعلم وهكذا فى جميع المتشابهات .

ومن الجراءة أن نعين مقصدا ترمى إليـه بما نراه يواتى
ونريد فهم الذات منك ولم نحط بدقيق صنعك خالق الذرات
إن كانت الأرواح بعد وفاتنا ليست تحاكى الجسم فى الحركات
وكذا الملائك لانصور ذاتهم والجن نجهلها بأى صفات
فالله أقدس أن نشبهه بنا بمجيئه وملائك الرحمات
أو أن نؤول ذا لـكى يبدو لنا وضحا فبئس الفهم من ثمرات

الرسول وكلام الله

وحبيبك المختار من بين الورى فخر الوجود وسـيد السادات
المصطفى الهادى محمـد من به دكت صروح الشرك والظلمات
هو من عليه تنزل القرءآن من رب الأنام فكان خير هداة
وهو الرسول وليس ينطق عن هوى وهو البشـير بخالد الجنات
هو صاحب الحوض الشهى مذاقه وشفيعنا فى الحشر بالميقات
و إذا تناكرت النفوس فإنه هو من يقول أنا لذى الأزمات
الـكل يعرف فضـله و يحبه يفديه بالأرواح والمهجات
من لم يقدم حبه عن نفسـه فهو الشقى مؤبد اللّعنات
صليت أنت عليه ثم فرضتها فعليه منا أفضـل الصلوات

الصحابة وكلام الله

ونحب أصحاب الرسول فمنهم من قد أتى فى محكم الآيات
إذ كان ثان اثنين فى الغار الذى آوى الرسول بساعة الأزمات

ولبعضهم وردت إشارات وقد أخـــذ النبى برأيهم مرات
وعليهمُ أثنى وقال بأنهم هم كالنجوم تضىء فى الظلمات
فإذا اقتديتم فى الحياة بواحد منهم فذاك هدى العلى الذات
فغدا علينا أن نحيهمو جميـ ـعاً دون ما تفريق وميزات
وكذاك نمسك عن تخالفهم ومن هو صائب أو مخطىء الرميات
وعلى الإله جزاؤهم ما بالنـا نذكيه بعـد تقادم الحقبات
ونبث منهم تخالفاً وتخاذلا فى المسلمين يجر للهلـكات
فإن اعتقدنا الحق جانب فرقة أو ضدها ما زاد فى الحسنات
لـكنّ حب المسلمين جميعهم أجدى لنا من بغضهم بمئات

الأولياء وكلام الله

ونحب أيضا أولياء الله من لاخوف يغشاهم ولا حسرات
وكذاك حب الصالحين نعده قربى لنا من أعظم القربات
سيان أحياء وأموات لهم حُبٌّ لما أدوه من طاعات
لـكننا لانرتجيهم كشف ما نشكوه من كرب ومن محنات
كلا ولا ندعوهم لقضاء ما نرجوه فى الدنيا من الحاجات
فالله خالقنا أحق بعوننا إن نابنا شىء من الأزمات
ندعوه فى كل الأمور لأنه هو وحده من يسمع الدعوات
وهو المجيب لمن دعاه كوعده للناس وهو مفرج الـكربات
وسـواه ليس بنافع فى ذاته كلا ولا منجى من الهلـكات

المجتهدون وكلام الله

والله أثبت للأئمة قوة اســـتنباط أحكام من الآيات
ودعا إلى استفتائهم فى كل ما يخفى من الأعمال والطاعات
ولذاك نحترم الأئمة والمـــذا هب معجبين بوافر النفحات
إذ حرروا أحكام هذا الدين مع ذكر الفروع بصائب الكلمات
من بعض آيات الكتاب فإنه هو مصدَر التشريع والخيرات
ومن الحديث ومن قياس محكم وكذا من الإجماع فى حالات
ولقد كفونا الاجتهاد ببحثهم فى مجمل الأحكام عن خبرات
ولذا نقلدهم كمقتبسين من ما جاء فى التنزيل من حكمات
لا أنهم أصحاب أديان وما عصموا من الغلطات والهفوات
وكذاك من نسجوا على منوالهم وتعمقوا فى البحث والنظرات
من تابعيهم من بهم وضح الهدى وبدا صحيح الرأى والقولات
والله يجزيهم جزاء وافرا ويثيبهم من فضله الجنات
ويزيدنا علماً ومعرفة به وبما له فى الكون من آيات

السنة وكلام الله

والله قد فرض اتباع المصطفى فيما إليه دعا من الطاعات
وقضى علينا حبه كمحبة الـ مولى وأن نفديه بالمهجات
وعليه صلى والملائك ثم قا ل فأكثروا التسليم والصلوات

فغدا علينا أن نتابع سنة الـ ـهادى التى صحت بخير رواة
إذ أنها كالشرح للقرءآن تبـ ـدى ما اختفى وتوضح الغايات
وكذاك أعمال الرسول تعد من ما قد أشير إليه فى السورات
إذ قد أمرنا أن نُتابع فعلَه وكلامَه فى سائر الحالات
وكذا نكف وننتهى عن كل ما ينهى ويمنع منه من فعلات

هدى القرءآن

ولقد تفرع عن كتاب الله مخـ ـتلفُ العلومِ وسائرُ المهنات
وبه أشير إلى الصنائع والفنو ن وكل ما يأتى عن الفكرات
حتى تبينا حقيقة قوله لو أن ما فى الأرض من شجرات
صارت بحول الله أقلاما وصا ر البحر للأقلام شبه دواة
ويمده من بَعْدُ سَبعةُ أبحر لم ينفد المسطور فى الصفحات
فمن المحال إذاً علينا أن نحيـ ـط بما حوى القرءآن من غايات
فى كل يوم نهتدى لعجائب وغرائب من صنع عالى الذات
قد أوجب القرءآن أن يتفكر الـ إنسان فيها فى مدى الأوقات
ويطيل فيها الدرس كى تتفتق الأ ذهان بالتفكير للحكمات
وغدا علينا واجباً بحث الحيا ة وما بها من كل موجودات
إذ أنه مهما اكتشفنا لم نحط علماً بما فى الكون من آيات
أو لم نصل لحقائق الأشياء بعـ ـد ولم نزل فى أول الدرجات

إذ فوق كل ذوى علوم عالم والله أعلمهم بلا مريات
وهو الذى لم يؤتنا من علمه غير القليل وموضع النظرات

دروس العلم فى كلام الله

والله علم آدم الأسمـــاء ثمـــم هداه كيف يتوب عن زلات
وكذاك جبريل بأمر إلهه قد كان علم أحمـد الآيات
ولصحبه المختار كان معلماً بالقول والتطبيق والحكمات
والله أوحى للخلائق كل ما تحتاجه لضمان خـير حياة
وكذاك سخر لابن آدم كل ما يهديه كيف يعيش فى غبطات
وهداهم للسعى فى الدنيا لنيـــل الرزق أو لتنوع المتعات
ولأجلهم خلق الكثير لكى ينبهـــهم لما هم فيه من حاجات
وييسر الرزق الحلال لهم ويغـــمرهم بأنواع من اللّذات
كيما يخفف عنهم عبء الحيا ة وما يصادفهم من الأزمات
وليستعيضوا جانباً من متعة كانت لهم فى ساحة الجنات
فالماء وهو حياتهم آتاهم منه الكثير ليجزل المنات
والحبُّ والأثمار أنبتها لهم أُكُلاً ليقتدروا على الطاعات
وكذلك الأنعام أوجدها لهم منها الغذاء وسترة العورات
ومنافع شتى وفوق ظهورها يطوون أقصى الأرض بالسلعات
وسقاهم من بين فرث والدما لبنا يشـــير إليه بالآيات
وسقاهم من جوف نحل ضامر عسلا شهيا طيب النكهات

وبوسط بحر قد أعد الحوت يقـ ـتاتون منه وهم على الموجات
ومن الحجارة قد أعد معادنا وجواهرًا للرزق والحليات
حتى الغراب أتى فكان معلما قابيل كيف يوارى السوءات

الآيات الكونية فى كلام الله

وكذاك أوجد مرشدين لهم إلى سنن الوجود ومطلع الخيرات
فالشمس والقمر المضىء كلاهما خلقا لهدى الناس للأوقات
ولكى يكونا والنجوم وسيلة لهداية الضالين للطرقات
والليل سُخِّر والنهار لغاية هى فى هناء العيش خير أداة
هى أن تنظم للورى سبل الحيا ة وراحة الإنسان بالساعات
ومن اختلاف الوقت والأحوال ما فيه الهدى لمصالح الثمرات

هداية الرسل وكلام الله

وكذاك أرسل مرسلين لهديهم للصالحات وسلم الجنات
فأتوهم بالكتب فيها دعوة للدين والدنيا وللميقات
وختامهم قد كان سيد يعرب المصطفى من صفوة الصفوات
والعقل صيره أداة تقبل الإ رشاد هادى الجسم للخيرات
وأناله من قوة التفكير ما يهديه كيف يحقق الغايات
وحباه منه العلم لاستخراج ما فى الأرض من نعم ومن ثروات
وهداه لاستخدام معظم ما هنا لك من قوى فى الأرض والسموات

و بلوغ أقصى حالة فى الفن تس تهوى النفوس وتكمل الزينات
لعمار هذا الـكون وفق إرادة الا مولى الذى هومصدر السلطات
حتى لقـد علموا الذى لم يعلمو ه وأوجدوا عددا من الآلات
و بها لقد بلغوا الـكمال وأبدعوا بالفـكر ما سموه (مخترعات)
صنعت كما أوحى فـكانت آيةً لله مرشـدهم إلى الخيرات
هى ضمن خلق الله أصلا بل وما آلت إليه بملهم الفـكرات
وفقا لما قد جاء فى القرءآن عن ه بخلق ما يخفى مع الأوقات
وهوالذى للعقل أخضع كل شىء فى الوجود بواسع الحـكمات
فالحول منه وما لنا من قوة إلا بما يؤتيـه من قوات

القوى الخفية وكلام الله

والله يسمع ما نقول كما يرى أعمالنـا فى كافة الأوقات
إذ منه قوة سمعنا والنطق وال إبصار بل والروح والحركات
وجميع ما فى جسمنا من قوة فمن الإله الواسـع القدرات
بل إنه هو مصدر القوات حا كم سائر الحركات والسكنات
وهو القريب من العباد لأنه لم تخل منه صـغيرة الذرات
فبكل شىء قوة منه تدل عليه من هو خالص النيات
قدصور «المذياع» كيف يكون فى كل الورى من كان فرد الذات
هذ القوى فى الجو تسمعنا كما هى تبصر الحركات والسكنات
إنا استرقنا السمع من موجاتها وأذيع ما فيهـا من الهتفات

ثم اتخـــذناها أداة بيننا لتخاطب وتناقل الصورات
لم تخف عنه صغيرة من أمرنا لافرق بين الفعل والنيات
بالكيف لم يعرف وليس بجوهر لايشبه المخلوقات فى الهيات
فالجاذبيـة والحرارة أثبتا لله ما يخفى عن الحدقات
وكذا الأثير ونحن من أجزائه قد جاء يثبت وحدة الذرات
ويدلنا أن الجواهر تنتهى بقوى تمت إليـه بالنسبات
وطبائع الأشياء وسر خواصها مما يدل عليـــه بالآيات
لولا الإرادة منه فى تخصيصها لم تفقد التأثير فى حالات
فهناك إبراهيم نجىَ من لظى نار وإسماعيل من هلـكات
ونرى الكثير يموت رغم علاجه ويطيب من قد عد من أموات
والعلم يخطىء تارة فيدل عن نقص بما نلناه عن خبرات
حيث التجارب فى الظواهر غيرما فى علم من قد كون الفطرات
فهناك سر كامن فى الغيب لا ندرى به ويلوح فى أوقات
هو قول كن فيكون ما يقضى به دون ارتباط منه بالعادات
والحس يخدعنا فنحسب ثابتا ما كان حقًّا دائم الحركات
والروح تحكى الكهربا ودليلها ضوء الحياة لراغب الإثبات
ووسائل التوليد قد عرفت لنا أما حقائقهـا فمنـه تواتى
وجميعها أثر له سبحانه رب القوى والأصل فى النشآت
وحقيقة القوات سر غامض وجلال ربى مصدر القوات

من كان يطمع فى التماس بقوة فمصيره للحرق فى لحظات
وكذلك اندكت جبال عند ما حصل التجلى منه للصخرات

المخترعون فى كلام الله

والله قال لنا (سليمان) الذى قد سخر الأرياح فى الرغبات
واستخدم الأطيار فى نقل البر يدو كشف ما بالناس من حالات
وبأمره وبقوة العـلم استطا ع جليسه فى تلـكم الأوقات
أن يستخفّ بعرش بلقيس وينـ قله إليـه بطرفة الجفنات
وبهديه نقلوا الحديد على الريا ح اليوم فى شىء من الخيفات
لـكنهم لم يستطيعوا أن يجا روه بسرعته ولا القوات
وله أسال الله عين القطر فا كـــتشف المعادن دون ما كلفات
من قبـله (داود) مخترع الد روع من الحديد تقى من الطعنات
وكذلك (نوح) كان أول صانع للفلك حيث الناس فى غفلات
كى يأمن الطوفان أو ليسير فو ق الماء فى أمن من الويلات
وهناك فى أخبار آل الفيل إذ قذفتهم الأطيـار بالحصوات
ما نبه الأفـكار لاستخدامنا للطائرات لرمى مقـــذوفات
وهل القذائف غير نوع من صوا عق توجب التخريب والهلكات
وهل الذى سموه (غازات) سوى ذاك الوباء يسمم الذرات
أولم تـكن هذى الطيور بشكلها وبسيرها فى الجو بالسرعات
هى وحدها أوحت بصنع الطائرا ت لـكل من قد تابع الفكرات

وأليست الأسماك فى جريانها وسط البحور ومعظم اللجات
قد علمتنا كيف نصطنع السفا ئن ثم نعقبها (بغواصات)
(عمر) بمسجده تمكن أن يشا هد جيشه فى أبعد الساحات
وعليه أصدر أمره أن يقصد الـ جبل المنيع ليكسب النصرات
ولقد وعى للصوت (سارية) ونف ذ أمره فى تلكم اللحظات
وبهديه اخترعوا لنا (المذياع) لـ كن بعد آلاف من الآلات
وكذا (التلافزيون) والتصوير عن بعد لما يجرى من الحالات
بل إنما العينان قد دلا على التـ صوير فى عكس وفى العدسات
والأذن قد دلت على التكبير للأ صوات فى شكل وفى الطبلات

التفكير فى آيات الله

ولقد نرى من بعد أن بوسعنا تحقيق ما هو خارق العادات
إن ما بحثنا فى الكتاب وفى بد يع الخلق والآلاء والمثلات
متتبعين لهديه راجين تنـ وير البصائر من علىٍّ الذات
فالله سخر لابن آدم كل ما فى الكون من جسم ومن قوات
ودعاهم أن يبحثوا وينقبوا لتفهم الأسرار والحكمات
ودعاهم أن يبحثوا فى ذاتهم من بدء خلقتهم من النطفات
وتطور التكوين فى الأرحام ثم خروجهم من داخل الظلمات
وحياتهم ونموهم فى هذه الد نيا وما هم فيه من حالات
وتفاوت الأفكار والآمال بل والعمر والأرزاق والدرجات

فلكل فرد آلة قد أوجدت ... له مغايرا لأخيه فى الخلقات
وجميعها متشابهات فى النظا ... م وكلهم من واحد الذرات
وجميعهم من صنعه وفعالهم ... منه بسلطته على الحركات
وتعدد الأطوار يثبت قدرة ... لله خالق تلكم الآلات
فجميع ذا مما يعرفهم به ... ويقودهم للخير والطاعات
إذ لا سبيل إلى الوصول لكل ذا ... إلا من الخلاق عالى الذات
وكذاك حضهم على الأعمال كى ... ما يبلغوا الآمال والغايات
وأنالهم من فضله عزما ومقـ ... ـدرة على إبراز (مخترعات)
مستخدمين جميع ما فى الكون فى ... أغراضهم بالعلم والفكرات
ومسخرين قوى الوجود وماحوت ... (وأشعة) ودخائل (الذرات)
فيما ابتغوا فى هذه الدنيا من اللـ ... ـذات والتخريب والهلكات
حتى لقد ظنوا بها لنفوسهم ... شيئا من التأثير والقدرات
بينا تدل على الإله جميعها ... ولبأسه أضحت من الآيات
فمن المهم بأن نقر بأنه ... سبحانه هو مانح النعمات

القوى الفعالة فى كلام الله

وهو الذى وهب العباد جميع ما ... هم فيه من نور ومن ظلمات
ومن الهوا والماء بل كل القوى ... والعقل والحركات والسكنات
وهو المصرف للشئون جميعها ... فى الكون وهو مسير الدفات
وهو الذى هو دائما معنا وأقـ ... ـرب ما يكون لمرتجى الرحمات

بل إنه أدنى لمن يرجوه من (حبل الوريد) وأقرب القوات
إذ منه نكتسب الحياة لجسمنا وبدونه لانملك الحركات
بل إنه سرّ الحياة وموجد الـ آلاء وهو محرك السكنات
وقواه كامنة (بذرات الوجو د وفى الأثير) وموضع النبضات
وهو العليم بكل مافى الكون من خلق ومن أعمال أو نيات
فإذا سعينا إنما نسعى بقـ وته وما أولاه من عضلات
بل بالحياة وقد حبانا الروح منـ ه فكلنا فى الكون كالآلات
بل نحن من ضمن القوى وجميعنا جند يسير بمقتضى الحكمات

صلة العبد بالله

ومتى أردنا الإتصال به فلي س هناك من تعب ولا كلفات
بل فى استطاعتنا اللجوء إليه جل جلاله فى كافة الأوقات
فنبثه آمالنا من قلبنا ونؤكد الرغبات بالدعوات
ونراقب الإلهام من نفس الطري ق لما سيوصلنا إلى الغايات
إذ أنه لابدّ أن يهدى الفؤا د إلى الصواب وأحسن الطرقات
فمن اتقى مولاه يهد القلب منـ ه إليه بل ولمنتهى الخيرات
فالقلب (بيت الرب) وهو محل أنـ ظار الإله وموضع النجوات
وهو (المحطة) لاتصال الروح بالـ مولى بها الأفكار (كالموجات)
تعطى وتأخذ بل وتملى ما ترى ولها يَدِينُ الجسم بالطاعات
وبقدر ما تصفو من الأغيار تشـ غل بالمجيب فتسمع الهمسات
وجميع ما يأتى إليها داعيا للخير فهو من العلىّ الذات

أو داعيا للشر فهو وساوس جاءت من الشيطان للشهوات
والله يعطى المرء ما يرجو بها منه إذ الأعمال بالنيات
والمرء يمسى ملهما وموفقا فى سعيه لايعرف الخيبات
وهناك أعظم قوة فى الكون تد فعه إلى الإصلاح والحسنات
وتقوده من حيث لايدرى إلى مايبتغى من غير ما كلفات
والنفس منه طروبة والجسم يس عى وفق أمر الله فى الطاعات
و يظل فى الدنيا يعيش كزهرة لاتعرف الآلام بالهلكات
الله أنبتها وأرواها فلم تذكر سوى مَنْ مَنَّ بالإنبات
أو كاليعاسيب التى قد أخضع ال مولى لها عددا من النحلات
من غير سلطان لها أو ميزة إلا إرادة رافع الدرجات
فغدت تدين له تعالى وحده ولغيره لم تذكر المنات
والمرء فى الدنيا بما أوتى من ال تميز والتفكير والحكمات
أحرى بمعرفة الإله فلا يدي ن لغيره فى كافة الحالات
و بأن يكون على اتصال دائم بفؤاده بالله عالى الذات

محبة العبد لله

ولمن أراد محبة المولى له فليخلص الأعمال والنيات
وليجتهد فى أن يراقب ربه فى كل ما يأتيه من فعلات
وليعبد المولى بما أوحى به سبحانه وليكثر الصلوات
وليتخذ وقتاً يفكر فيه فى آلائه وبديع مخلوقات
وعليه دوما أن يلقن نفسه حبَّ الإله ومالك الميقات

من منه قد نال الحياة وكل ما هو فيه من نعم ومن خيرات
وهوالذى فى الحشرسوف يثيبه برضائه من فضله الجنات
وبمثل ذا يتعود المرء التقى وَالْحُبَّ والإخلاصَ بالنيات
ومتى أحب العبدُ مولاه فسو ف يحبه ويزيدَه درجات
وإذا أحب الله عبدا حبه من فى الوجود وفاز بالرغبات
ويكون ربى سمعه ويمينه ودليله فى ساعة الحيرات
وبه يكون مسددًا فى رأيه وموفقًا فى السعى والفكرات
ولسوف يبلغ ما يريد من الحيـ ـاة بما حباه الله من قوات
ويعيش فى الدنيا سعيدا ناجحا ومنعما بالخير والحسنات
ذا قوة جذابة وإرادة بالله تهزم أعظم العقبات
وسكينة من ربها تستلهم الـ رضوان والعرفان والحكمات
وهناك تصفوالنفس من أدرانها وتظل تسبح فى هدى الأيات
وتعم فى الدنيا كرامات ويحـ ـظى المؤمنون بفائق العزات
فالنفس إذ تصفو وتعرف ربها تسمو عن المحسوس من لذات
وتسير فى بحر المعارف والهدى دوما فلا تصبو إلى الشهوات
بل إنها تجد المَلَذة فى غذا ء الروح بالإحسان والصلوات
والإتصال بمالك الدنيا وما فيها ومن هو موجد النعمات
وبذاك لاتخشى البلاء ولا تخا ف الناس فيما كان من طاعات
بل قد تغالب حزنها لتنال بالـ صّبر الرضى من مالك الميقات
لا بل لفرط صفائها ويقينها بالله تبصره مدى الأوقات
فى كل ما هو خَلقَه أو فعله فتظل راضية على الحالات

وتظل تنعم فى الحياة بغير ما هو قد يسر الجسم من متعات
وترى الحياة لها كسجن مظلم وخلاصها للنور إثر وفاة
هـذا الـكمال حقيقة ولمثله فليعمل الراجون خير حياة
من قد أعدَّ لهم إله العرش فى الـ أخرى النعيم بخالد الجنات
وهم الذين دعاهمو مولاهمو بالمتقين وخالص النيات

تقوى الله

وحقيقة التقوى مراقبة المهيـ ـمِن عند ميل النفس للشهوات
وكذا ابتغاء الأجر عند الله فى الـ أخرى عن الحركات والسكنات
والائتمار بأمره فيما إليـ ـه دعا من الأعمال والصلوات
والابتعاد عن المعاصى والإنا بة دائما لله بالخشـيات
والمتقون هم الذين لمالِهم قد أنفقوا لله لا السُّمعات
والـكاظمون الغيظ والعافون عن من قد أساءوا راغبو الحسنات
والذاكرون الله إثر ذنوبهم مستغفرين بنية التوبات
من غير إصرار على تفريطهم راجين منه العفو والرحمات

الإخلاص لله

وحقيقة الإيمان أن يتعبد الانســـان ممتلئا من الخشيات
متصوراً مولاه وهو عليه مط لع يحاسـبه على اللفتات
إذ أنه فعلاً يراه وإن يكن هو لايراه كسائر النسمات
وكذاك أن يك زاهدا والزهد لي س كما يراه قاصر النظرات
بتقشف أو لبس مرقُوع الثيا ب وترك ما قد حل من متعات

فالمصطفى قد قال ليس الزهد فى ... ترك الحلال وضيعة الثروات
بل إنما هو أن تكون بما لدى ال ... رزاق أوثق دون ماريبات
مما يحوزك بل وحتى فى يدي ... ك وأن تكون بساعة البلوات
فيها أشد تشوقا من قبل من ... عظم الوثوق بأجر عالى الذات
و بذاك لاتأسى على ما فات من ... نِعمٍ ولا تفرح بما هو آت

وسائل الرزق فى كتاب الله

والله قال وما بكم من نعمة ... فمن الإله مقسم الثروات
وكذاك قال (لأهلك أمر بالصلا ... ة) فلست مسئولا عن الأقوات
(لا تقتلوا أولادكم من خشية الا ... إملاق) إن الرزق من منّاتى
فَلَنَحْنُ نرزقكم جميعا دائما ... ولنا عليكم واجب الطاعات
بل أقسم المولى بأن الرزق قُدِّ ... ر فى السماء من العلى الذات
وكذاك ماوعد الإله عباده ... من بعثهم والعرض فى الميقات
لابدّ من تنفيذه حتما كما ... هم ينطقون اليوم بالكلمات
فكلاهما حق فإن شكّ امرؤ ... فى نطقه وخلا من العاهات
فله التشكك فى تحتم رزقه ... أو بعثه والنار والجنات
و بأمره بالسعى قال لكى (نرى ... أعمالكم) فالرزق محض هبات
مِنْ ثَمَّ أخبرنا بأن مجرد اس ... تغفاره سرا مع التوبات
مما يسبب رحمة المولى وغف ... ران الذنوب ووفرة الخيرات
إذ يرسل الغيث العميم من السما ... ء ويجعل الفلوات كالجنات
ويمد من يدعوه بالأموال والْ ... أبناء حتى يكمل الزينات

وكذاك أخبرنا بأن مجرد ا ... تقوى وطاعة بارئ النسمات
مما تهيئ مخرجا للمتقى ... فى حالة الأزمات والكربات
وتيسر الرزق الحلال له بلا ... تعب ولا نصب ولا كلفات
من حيث لايدرى ولم يعمل له ... بطريقة لم تبد للفكرات
وفقا لما وجدته مريم وهى فى ... محرابها من وافر الثمرات
حتى لقد كانت مثار تعجب ... فى قومها من تلكم الحالات
وكذاك يصلح أمره وفعاله ... وله ينور أظلم الطرقات
ويكون فى كنف الإله فلا يُمَـ ... ـسُّ بأى ما سوء ولا فتنات
والنصر مكتوب له حتما بعو ... ن الله والإمداد فى الحومات
والله بشره بأن سيناله ... كفلان منه واسع الرحمات
وبأنه المولى سيغفر ذنبه ... وله سيزلف عالى الجنات

الدعاء فى كلام الله

والله أعطى للعباد عليه وع ... دا ليس يخلفه مدى الأوقات
أن يستجيب دعاءهم أنى دعو ... ه ويمنح الطلبات والرحمات
من غير ما نظر إلى أديانهم ... أو كفرهم بالله والآيات
إذ قال ربى (إنه هو من يجيـ ... ـب دعاء من يدعو) من النسمات
ودعا العباد إلى استجابتهم له ... بدعائه بالذل والخفيات
وليؤمنوا بوجوده وبقربه ... وبأنه لايرفض الطلبات
بل إنه سمى الذى لم يدعه ... مستكبرا عن واجب الطاعات
ولسوف يدخله جهنم داخرا ... يهوى بها فى أسفل الدركات

إذ أنه لم يقبل الإحسان من رب الأنام برفضه الدعوات
وكذاك يصبح مشركا من كان يد عو غيره فى حالة الشدات
والله لما أن دعا إبليس بالـ ـإنظار أنظره إلى الميقات
مع علمه بالقصد من ذاك الدعا ء وما يراد به من الفتنات
وصدوره فى حالة العصيان بل عند الغرور ورفضه السجدات
وكذاك لما أن أناب إليه آ دم داعيا قد منّ بالتوبات
وأناله ما قد دعاه به من الـ ـغفران والرضوان والرحمات
وجراءة الشيطان فى دعواته جعلت له ما رام من سلطات
وكذاك كل الأنبيا والرسل لما أن دعوه حقق الدعوات
وأجاب ما طلبوا لأنفسهم وأه لميهم وباء القوم بالهلكات
ونبينا لما دعا المولى لأ مته هداهم أقوم الطرقات
بل صانهم مما أصاب سواهم ممن مضوا فى سابق الحقبات
ولمن دعا فى ساعة الأخطار قد نجى وفرج أعظم الشدات
وكذاك ينجى المؤمنين الله إن رجعوا إليه ساعة الغمات

الثقة بالله

وكذاك كل الناس من منهم يُوَجِّهُ قلبه لله فى الحاجات
ويردْ من الله النجاح فإنه سيناله حتما بلا مريات
لكن على أن يعزموا بدعائهم ويؤكدوه بشدة وثبات
بل يوقنوا بإجابة المولى الدعا ء لأنه لا يخلف الطلبات
ولأنه هو من حباهم كل شى ء منه حتى العقل والفكرات

وهدى إليه من ارتضى وأنار با لإيمان قلب المرء والنظرات
لا أن يقولوا إن تشأ ربى ائتنا ذاك الذى نرجو من الرغبات
فالله لم يكره على هذى الإجا بة إنما هو مانح النعمات
وعد الأنام بها فليس لنا إحا لة أمرها لله فى الدعوات
بل لايحل لنا التردد فى استجا بتـه لنا بالقول والنيات
إذ أن معناه التشكك فى مدى إحسانه أو مبلغ القوات
أو وعده للناس وهو مؤكد قد نص عنه بمحكم الآيات
وسقوط أبراج السماء على البسي طة واصطدام الشمس بالنجمات
أدنى وأقرب من تردد ربنا فى بره بالوعد للنسمات
فالوعد دين لايجوز المطل فيـ ـه وليس ينكره ذوو القدرات
بل إنه لابد فيه من السدا د لمن سيطلبه بكل ثبات
والله أكرم من يفى بالوعد أو يقضى الديون ويقبل التوبات
لـكن إذا صحت وكانت من صمـ يم القلب أوصدرت عن الحرقات
ولذاك كانت دعوة المظلوم آ كد بل وأرجى عند عالى الذات
وإذا دعا المولى امرؤ متوكلا يكفيه ما يرجو بلا مريات
فالله بالغ أمره لـكنه قد قدر الأشـياء بالأوقات
والله إذ وعد الورى بإجابة الـ ـدعوات لم يقصد به الخدعات
كلا ولم يك هازلا ومجاملا فى وعده للناس فى السورات
وكذاك ليس يحول دون وفائه شىء تعالى مالك الميقات
حاشا وليس لديه صعب أو عظيـ ـم لاينال بأقرب اللحظات

فيقول كن سيكون مايدعو به الْ   إنسان مهما كان فى العظمات
لـكنه تأتى الإجابة وفق أعـ   ظمة الحياة ومقتضى الحالات
ولبينما تتهيأ الأسـباب أو   تتلاءم الأوقات للطلبات
فالله إذ خلق السموات العلى   والأرض لم يلجأ إلى السرعات
بل كان ذاك بنحو أسبوع وكا   ن بوسـعه إبداله فترات
والله ربى ما تردد قط فى   أمر تردده بأمر وفاة
فالعبد يكره أن يموت وربه   يأبى إساءته بفقد حيـاة
وبه لقد سبق القضا ليكون منـ   ـه وسـيلة للبعث والجنات

تجنب الشك

ولئن يكن سبب لخيبة أىِّ شخـ   ـص فى الحياة فذا لفقد ثقات
أو كان ثمت من دعاء لم يُجَبْ   فلأنه ما كان من مهجات
أو شابه شك يعطل فعله   ويحول دون تحقق الرغبات
والله ليس يجيب دعوة غافل   لاهٍ ولا متردد النيات
أو قائل : إنى دعوت فلم أجب   أو من دعا بالإثم والفرقات
بل إنه المولى ينيل السائليـ   ـن الله ما يرجون من حاجات
فى هذه الدنيا ولو إصلاحه   شسع النعال وأعظم الغايات
وكذاك مايرجون فى الأخرى من الـ   ـغفران والإحسان والجنات
وييسر بالطلب العظيم لأنه   لا شىء أعظم منه ذو العظمات
وكذاك يغضب فى الأنام على الذى   لم يدعه فى ساعة الأزمات

والله إذ منح العباد إجابة الد عوات وهو الواسع الرحمات
قد قال للشيطان إن عباده لايستطيع عليهم السلطات
فبسر دعوتهم سيحبط سعيه ويرده نَدِمًا من الخيبات
وكذاك سوف يعمهم بمراحم لم تبد للإنسان فى الخطرات

تـكرار الدعاء

والله حض على الدعاء وسنه فى كافة الأوقات والصلوات
كى ما يكون سجية ويفيدنا تـكراره للجزم بالرغبات
وأبى وحذر أن نـكون بغفلة عما نقول بتلـكم اللحظات
بل إنه منع الصلاة بحال سكـ ـر فيـه ينفى العلم بالقولات
وإذا دعاه جاحد فى شـدة إن شاء بددها من الرحمات
أو شاء أهمله جزاء الـكفر فى ما قد مضى من سابق الأوقات
ومن اكتفى فى العيش بالمقدور دو ن تطلب التعديل فى الدرجات
بدعائه والسعى سوف يظل حـ ـتى الموت وهو بتلـكم الحالات
بل ربما يهوى إلى ما دونها متدهورا فى الرزق والنعمات
بل ربما هو يخسر الأخرى إذا ترك الدعا والسعى للجنات
إذ أنه رفض استجابة مانح الأ أرزاق من لايرفض الدعوات
وكذاك قد رضى البقاء بحاله وبأن يعيش كعيشة السلعات
لايطلب المولى بإيمان ولا يرجو إجابتـه بكل ثقات
بل ليس يجزم بالرضى من ربه إذ أنه لم يخلص النيات

أو لم يتب حقا ولم يعمل ليو ... م البعث أو يترقب الرحمات
بينا ينادى الله فى الأسحار (هل ... من سائل) فأنيله الغايات
أو (تائب مستغفر) فأحوطه ... بالعفو والغفران والتوبات
وأنا الإله (وكل شىء رحمتى ... وسعته) فى الدنيا وفى الميقات
وجزاء من ذا شأنه سيكون نسـ ... ـيانا لدى التوزيع للنعمات
يوم الحساب لأنه نسى الدعا ... ء بما يريد بتلكم الأوقات
بل إنه نسى المعاد وأنكر الْـ ... ـأخرى وأغفل جانب الحسنات
وتعمد العصيان فى ترك الدعا ... ء وفى تقاعسه عن الطاعات
لا غرو أن يُنسى ولايلقى سوى ... نار الجحيم ومنتهى القسوات
وهناك يحصد زرعه ويرى جزا ... ء الكفر بالمولى العلى الذات
ونتيجة الإهمال فى الدنيا وكيـ ... ـف تكون عقبى اللهو والغفلات
بل ما استحق من العذاب لرفضه ... حسن التعرف بل وحسن صلات
بالله خالقه ومطعمه وسا ... قيه وكاسيه من الحليات

ترقب الإجابة

والله صير أفضل الأعمال فى الـ ... ـدنيا انتظار اليسر فى الشدات
حيث الدعاء يعد كالمفتاح فى ... باب الرجاء ييسر الغايات
فى وجه من رام التقدم والوصو ... ل بسعيه للقصد والذروات
أو كالطليعة يرتجى فى إثرها ... ما يبتغيه المرء من رغبات
أو كالوسيلة لاتقاء الضر فى الـ ... ـدنيا وكشف الصعب والعقبات

والفوز فى الأخرى بأنعم مالك ... لايرتضى لعبيده الهلـكات
إذ أنه هو فى يمين المؤمنيـ ... ـن سلاحهم فى أحرج الساعات
وهو العماد لدينهم (مخ العبا ... دة) وهو نور الله فى الظلمات
فالله لم يعبأ بنا لولا الدعا ... ء لأنه هو يمنع النكبات
وهو الذى لابد ينفعنا إذا ... نزل القضا متماسك الحلقات
فيفـكها ويرده بمشيئة ... سبقت من المولى العلى الذات
(ولرب أشعث أغبر أن قال قو ... لا بره) المعطى بلا منات
والله يرزق من يشاء بلا حسا ... ب باعتبارهم من النسمات
ولقد تـكفل ذو الجلال برزقهم ... و برزق مافى الـكون من حشرات
وكذاك يرزق من دعاه كما يريـ ... ـد بأفضل الأسباب والأوقات
إذ أنه المولى العليم بما سيصـ ... ـلح أمرهم و بأحسن الحالات
حاشا يجاريهم على رغباتهم ... إن لم تكن مضمونة الثمرات
وله تعالى أن يعجل ما يرى ... تعجيله من ألزم الحاجات
ويؤخر الباقى ليوم قيامة ... أو بالدعاء يكفر الزلات
ولذاك قد وعد الإله الصابريـ ... ـن على القضاء بأرفع الدرجات
إذ أنهم قد ســلموا لله ثم ... رضوا بما يرضى من الفعلات
والله منّ على العباد بأنه ... آتاهم من كافة الطلبات
و بأنه يعطى الثواب لمن يريـ ... ـد بهــذه الدنيا وبالميقات
ولو أن أهل كتابه قد آمنوا ... ثم اتقوا ومشوا على الخطات

فإذاً لنالوا رزقهم (من فوقهم أو تحت أرجلهم) وكل جهات
فلنرتقب نحن الإجابة للدعا ء بدون ما شك ولا ريبات

بذل الجهود

ومن المهم بأن نسير مع الدعا ء على الطريق ونقصد الغايات
ونجدّ فى المسعى لنبلغ ما نري د من الحياة بأقرب الساعات
أما الدعاء بدون سعى إنه شأن الضعيف الفاقد الهمات
يأتى إلى الأبواب يفتحها ولا يرضى الصعود لأرفع الدرجات
ويظل يرقب مَن سيرقاها ولا يبدى سوى الآلام والحسرات
فيبوء بالحرمان مما يبتغى ويفوز بالآمال ذو العزمات
من يفتح الآمال بالدعوات ثـ ـم يسير بالأعمال للذروات
وإذا عرته فى الطريق مصاعب بالصبر ذللها وبالحكمات
وبما لديه من اليقين بربه وبما يؤمله من النصرات
بل ماسيمنحه الإله له من التو فيق والتأييد والقوات
فالله إذ شرع الدعاء دعا إلى الـ ـأعمال والإقدام والعدات
وأبى الخمول وأن نراقب رزقنا يأتى بمحض الجود والمنات
بل إنه جعل الثواب مرتبا دوما على الأعمال والنيات

حضور القلب

أما الدعاء بغير قصد أو بلا اسـ ـتحضار رب العرش فى الدعوات
(كوظيفة) تتلى بشكل الببغا ء فذاك قد لاينتج الثمرات

أولا يكون وسيلة لتحقق المأ مول فى وقت من الأوقات
إذ أنه كاللغو إن قلنا بأن لا إثم فى الإعراض والغفلات
عمن نخاطبه وندعوه بأل سنة ونخـــبره عن الطلبات
وكذاك حال الذكر والتسبيح واس تغفارنا والحمـــد بالميات
لـكنما التكرار فى هذا يذكـ ـر غالبا بالله عالى الذات
ومتى ذكرنا الله حقا مرة بتبتـــل مع خالص النيات
فالله يذكرنا كذكرانا له ولنـــا يحقق كافة الرغبات
والذكر يوقظ كل قلب غافل وينبه الإنســان للخيرات
وينيل رضوان الإله فلا يضل وتتقيـــه فيجنب الحرمات
ولذاك كانت كلمة التوحيد بالإ خلاص تدخل عالى الجنات

وجوه التفسير

هذا وإن للتفسير وجوها أربعة :

(١) تفســـير لا يعذر أحد بجهالته .

(٢) تفسير يعرفه العرب بكلامهم .

(٣) تفســـــير يعلمه العلماء .

(٤) تفســـــير لا يعلمه إلا الله .

فأما الأول فهو ما يلزم العامة من الشرائع والأحكام التى فى القرآن مع دلائل التوحيد . وأما الثانى فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم .

وأما الثالث فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام المستنبطة من الكليات .

وأما الرابع فهو مايجرى مجرى الغيوب وقيام الساعة ، فمن واجب المفسر أنه لايخرج عن دائرة هذه الحدود ، والله المسئول عن تأييد حجته و إعلاء مناره « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

وقد استخرتُ الله وتوسلت إليه بأسمائه الحسنى أن يقدرنى على القيام بأعباء هذه المهمة ، وأن يلهمنى الصواب فى وضع تفسير منطبق على سنة وطريقة السلف الصالح رضى الله عنهم من ترك التأويل والتفويض إلى الله سبحانه وتعالى فيما أراد من كلامه وآى ذكره ، و بالقدر الذى يؤدى الغرض المنشود ، وهو بيان (معانى الكلمات اللغوية) وتبسيط آيات القرءآن الكريم ، وشرحها شرحا وافياً يوضح مايراد منها ، ثم بيان (المغزى) الذى تدل عليه ، ثم (الحكم) الذى استنبطه الأئمة والمجتهدون من آيات الأحكام أو الذى يستنتج من مدلول باقى الآيات مع الإشارة إلى ما هنالك من قراءات ، وما تتطلب الحاجة إلى ذكره من أسباب النزول بعبارة سهلة ، وأسلوب حكيم ، ولغة تلائم ذوق أبناء هذا العصر المتحضر . وإنى أحمد الله حق حمده فقد شملنى بفيضه الربانى واستجاب دعائى فجاء التفسير بحمد الله كما يراه القارئ الكريم ، وقد رأيت أن تكتب نفس الآيات بالرسم العثمانى نزولا على إجماع المسلمين ، وتوقيف المتقدمين ، واستقراء علماء المسلمين من رجالات الدين على أنى آتى بها ممزوجة فى الشرح بالرسم المتبع المتعارف الآن ، والمطابق للقواعد الحديثة المفهومة فى هذا الزمان .

وذلك ليعم بها النفع وتحصل الغاية المقصودة من نشر الدعوة الدينية بأوسع معانيها واتجاهاتها ونواحيها . وصدّرت هذا الجزء بهذه المقدمة وضمنتها بعض مقتطفات من منظوماتى السابقة التى تشير إلى مدى تأثير الاهتداء بكتاب الله مما هو مستلهم من بعض آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لبيان ما فى القرآن الكريم من المزايا ، ورغبة فى اجتذاب النفوس إلى باريها والقلوب إلى خالقها وهاديها ، فى وقت عبد الناس فيه المظاهر وشغلوا عن الحقائق بالظواهر وغرتهم الحياة الدنيا بزخرفها ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وما توفيقى إلا بالله . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

كما رأيت أن أطبع كل جزء من أجزاء القرآن على حدة ليسهل طبعه ويتيسر لكل أحد اقتناؤه ؛ وزيادة فى خدمة الدين والمسلمين ، ورغبة فى الانتفاع به ، جعلت حجم التفسير فى القطع الصغير ليحمل فى الجيب ويصاحب الظاعن والمقيم ، فهو رفيق العالم والمتعلم والتاجر والزارع والصانع أينما كان أو يكون ، فى السفر والحضر ، بل فى كل مكان شاء الإنسان وأراد وهو السمير النابه ، والمحدث البليغ والمرشد والواعظ الموقر . والله أسأل أن يمدنى بروح من عنده ـ وهو الملهم للصواب ، وهو المستعان على إتمامه على الوجه الأكمل ـ وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، ويثيبنى على ذلك بفيض فضله العميم إنه سميع مجيب وهو ولى التوفيق وهو الوهاب الرحيم ؟

الخطيب

سورة الفاتحة

هذه السورة مكية ، آياتها سبع ، وهى أول سورة نزلت كاملة من القرءان ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بجعلها أول القرءان الكريم وانعقد الإجماع على ذلك . أما أول آية نزلت من القرءان فهى من سورة (العلق) وإنما سميت هذه السورة الفاتحة لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يفتتح بها القرءان ، ولأنها مشتملة على مجمل ما فى القرءان . وهو بمثابة تفصيل للأصول الكلية والمقاصد العمومية والقضايا الدينية الشرعية الحكيمة . ولما تضمنه من العظات والعبر من القصص والأحداث التى وقعت فى الأمم الخالية الماضية فى غابر الزمان .

ومن شرف هذه السورة أن الله سبحانه وتعالى قدمها على جميع آى الذكر الحكيم وجعلها فاتحة كتابه الكريم ؛ وكل شىء قدمه رب العالمين فهو مقدم ومفضل على غيره .

وسميت فاتحة الكتاب ، وأم القرءان ، والسبع المثانى ، وسورة الشكر والحمد ، وقسمة الصلاة ، والدعاء ، ولهذا يفتتح القرءان بها ، فهى الأصل وأم الشىء أصله - وكونها مثانى لأنها تثنى وتعاد فى كل صلاة لفرضيتها .

وهى سورة الحمد لأنه ذكر فيها الحمد ، وهى قسمة الصلاة لقوله تعالى فى الحديث القدسى « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى

حمدنى عبدى ، فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال مجدنى عبدى وقال مرة فوض إلىّ عبدى ، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ما أنزلت فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور مثلها ، وإنها السبع المثانى والقرءان العظيم ، فقد أكرمنى ربى وأنعم علىّ بها وعلى أمتى » .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالمكية والمدنية من السور ، فقيل المكية ما نزلت بمكة ولو بعد الهجرة ، والصحيح الذى عليه الجمهور أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة نفسها أو فى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع أو فى غزوة من الغزوات .

فالسور المكية هى التى نزلت فى أول الإسلام لأجل الدعوة إليه وبيان أساس الدين وكلياته من التوحيد والدعوة إلى ترك الشرور والمعاصى والمنكرات والحث على فعل الخير .

والسور المدنية هى التى نزلت بعد الهجرة لبيان الأحكام التفصيلية فى الدين .

والسورة طائفة من القرءان مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر ، لها اسم خاص بحسب التوقيف والرواية الثابتة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (١)

اللفظ :

(الاسم) اللفظ الذى يوضع لتعيين الشىء وتمييزه عن غيره (الله) علم على ذات واجب الوجود (الرحمن) مفيض النعم (الرحيم) الثابت له صفة الرحمة .

المعنى :

ابتدأ الله سبحانه وتعالى بالبسملة إشارة إلى أن جميع ما يقرر فيما بعد هو من عند الله و (بسم الله الرحمن الرحيم) وليس لأحد غير الله شىء فيه ، وبمثل هذا يقول القاضى عند ما يصدر حكمه باسم الملك حكمت بكذا وكذا وباسمه أنفذ هذه الأوامر .

المغزى :

يعلمنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن نبدأ كل أعمالنا بتلاوتها لأن فى البدء (باسم الله) اعترافا بولايته سبحانه وتعالى الثابتة بقوله تعالى « الله ولى الذين آمنوا » وفى كلمة (الرحمن) ما يوجب محبته لقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » وفى كلمة (الرحيم) ما يدعو إلى الطمع فى رحمته لقوله تعالى « وكان بالمؤمنين رحيما » .

الحكم :

أخذ العلماء من بدء الفاتحة وجميع سور القرءان بالبسملة سنية البدء بها فى كل قول أوعمل ، وأيد ذلك حديث «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع» . وقد أجمع المسلمون على أنها جزء آية من سورة النمل ، واختلفوا فى كونها آية من كل سورة .

فقال الشافعى : هى آية من أول الفاتحة لقوله صلى الله عليه وسلم «إذا قرأتم الحمد لله» أى سورة الحمد لله «فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرءان والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها» وذهب الشافعى فى الجديد وأحمد فى أحد أقواله أنها آية من كل سورة لإجماع الصحابة على إثباتها فى المصحف فى أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرءان عن كل ما ليس منه . وذهب مالك وغيره إلى أنها آية مفردة أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها وعليه جرى الحنفية ، وقد ترتب على هـــذا الخلاف أن الشافعى يرى وجوب تلاوتها مع الفاتحة جهرا فى الصلاة ، وهى شرط فى صحة الصلاة عند مالك ، ومستحبة عند أبى حنيفة ، والأفضل عنده أن يسرّ بها .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

اللفظ :

(الحمد) الثناء (رب) السيد ، والمربى بمعنى المنشىء للشىء حالا بعد حال إلى حد الكمال (العالمين) ما سوى الله من جميع المخلوقات .

(مالك) صاحب الملك ، وقرىء (ملك) صاحب الملك والسلطان .

(يوم الدين) يوم الحساب : أى يوم القيامة (نعبد) ندعو ونعظم (نستعين) نطلب المعونة والمساعدة (إهدنا) أرشدنا (الصراط) الطريق (المستقيم) الذى لا اعوجاج فيه (المغضوب عليهم) المبغوضين (الضالين) التائهين عن معرفة الطريق السوىّ .

المعنى :

(الحمد) حقيقته وكليته يجب ألا يكون ولا ينصرف إلا لله وحده لأنه هو سبحانه وتعالى مصدر كل نعمة تستوجب الحمد ، وباعتباره سبحانه وتعالى (رب العالمين) صاحب الأمر فى التحليل والتحريم وهو الخالق المكون لهم والذى يسوس أمورهم ويربيهم ، فكل إعجاب

أو حمد يوجه إلى أى مخلوق من المخلوقات فهو موجه ومنصرف إلى الخالق العظيم والمبدع الكريم ومن بيده تصريف الأمور .

إذ الإعجاب بالمصنوع إعجاب بالصانع ، وحمد الأثر حمد للمؤثر ، وامتداح النظام تقدير لمنظمه ، وإنه هو (الرحمن) الذى خلقهم لمحض الرحمة دون أن تكون هناك حاجة به إليهم ، فالله غنى عن العالمين . (الرحيم) الذى يشملهم برحمته فهو الذى لا تنفك عنه صفة الرحمة أبدا . وهو (مالك) الملك المتصرف المطلق والحاكم الفرد العادل فى (يوم الدين) ذلك اليوم الذى حدثنا بأخباره الأنبياء والرسل ونص عنه فى الكتب المنزلة عن طريق الوحى . (إياك نعبد) نفردك وحدك بالحب الخالص والتعظيم والإجلال ونخصك بالدعاء الذى هو روح العبادة وتاجها ، لاعتقادنا الراسخ باليقين أنك السميع القريب المجيب وليس غيرك من يستحق العبادة أو يقدر على سماع الدعاء وتحقيق الرغائب والمطالب فأنت أنت الفعال لما تريد المؤثر فى كل شىء والمقصود قبل كل أحد ، وأنت المعطى المانع وأنت الوهاب (وإياك نستعين) نفردك وحدك بالاستعانة إذ لاحول لنا ولاقوة إلا بما أودعته إيانا من القوة الخفية الكامنة فينا ولولاك ما استطعنا تحمل المتاعب والمشقات ومكافحة الخطوب والأحداث . (إهدنا الصراط المستقيم) نور قلوبنا بهدايتك الربانية لنعرف السبل الموصلة إليك ، فأنت وحدك الذى تنعم بالهداية وتوفق من شئت إذعانا وإجابة لاتباع أوامرك الإلهيـــة . (صراط الذين أنعمت) بمعرفتك وبالإيمان بما

أرسلت به رسلك الكرام (عليهم) من الملائكة والإنس والجان . (غير المغضوب عليهم) من شياطين الجن وبنى الإنسان ممن قدّرت عليهم غضبك فضلوا وأضلوا وحادوا عن الطريق القويم بعد أن تبين لهم طريق الحق وكلمة الصدق وسبل الرشاد ، وقد بلغتهم الرسالة فلم يتقبلوها ومالوا عنها كل الميل وهجروها وعكفوا على غواية الشياطين وشرور النفس وسيئات الأعمال « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . (ولا الضالين) الذين لم يعرفوا الحق كلية . أولم يعرفوه على وجهه الصحيح فاسترسلوا فى الضلال فذهب سعيهم مع الريح .

المغزى :

تضمنت هذه السورة الكريمة خمس مسائل ، هى حقيقة الإيمان وصفوة ما يرشد إليه القرءان تتلخص فيما يأتى :—

(١) الاعتراف بنعم الله التى أسبغها على مخلوقاته وأسداها لعباده ، وشكرانها بالقلب واللسان .

(٢) الإيمان بالله وبرسله وملائكته واليوم الآخر .

(٣) الاعتراف بالكتب السماوية المقدسة .

(٤) الاعتراف والإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الصفات ، كما اشتملت على ما حواه القرءان من توحيد وعبادة ووعد ووعيد وأخبار وقصص وأحداث .

الحكم :

يستنتج من هذه السورة الكريمة ما يأتى :

(١) وجوب الحمد لله والثناء عليه لما أسبغه من فيض نعمائه على عباده ومخلوقاته

(٢) وجوب الاعتراف لله بالعجز المطلق والاتجاه اليه بالابتهال والدعاء .

(٣) ندب تقديم الحمد والثناء على الله فى حالة الالتجاء إليه بالدعاء .

ولا دليل فيها على وجوب تلاوتها فى الصلاة وإنما كان ذلك لحديث « لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وقد حمل الشافعى الحديث على الوجوب والصحة ، وحمل أبو حنيفة الأمر على الندب والكمال .

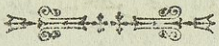

سـورة البقرة

مدنية آياتها مائتان وست وثمانون ٢٨٦، وهى أطول سورة أنزلت من القرءان الكريم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) .

اللفظ :

(الم) الكثير من المفسرين على أنها وأمثالها أسماء للسور المبتدأة بها ؛ والمعنى الحقيقى لها لا يعلمه إلا الله . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إن لله فى كل كتاب سرا وسر القرءان فى أوائل السور ، وينقل عن على رضى الله عنه أنه كان يقول (يا كهيعص) ، (يا حم عسق) أى أنه اعتبرها من أسماء الله . ويغلب على الظن أنها أسماء مقسوم بها مع حذف أداة القسم كقوله تعالى : يس والقرءان ، ن والقلم ، ق والقرءان ؛ فهذه أسماء أردفت بمقسوم به مما يشعر بأنها مقسوم بها أيضا .

(الكتاب) مجموعة النقوش والحروف المركبة ذات المعانى (ريب) شك (هدى) دلالة بلطف (المتقين) مأخوذ من الوقاية ، وهى حفظ الشىء مما يؤثر فيه أو يؤذيه .

(يؤمنون) مأخوذ من الأمن : وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف (الغيب) ما غاب أو استتر واختفى عن الحاسة أو عن علم الإنسان (يقيمون) يلازمون الفعل (الصلاة) الدعاء وأكمل أشكاله أن يكون بالحالة التى علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى الصلاة الشرعية ذات الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم ، ثم قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » (مما) من بعض ما (رزقنا) الرزق كل ماينتفع به (ينفقون) يصرفون (أنزل) النزول: هو الانحدار والانحطاط من العلو إلى السفل (يوقنون) اليقين هو الاعتقاد الجازم الذى لا شك فيه وهو فوق درجة المعرفة والدراية (المفلحون) الفائزون بما طلبوا الناجحون فيما أرادوا وقصدوا .

المعنى :

أكد المولى سبحانه بالسر الذى يعلمه فى (الم) أن (ذلك الكتاب) الذى نزل به جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو القرءان الكريم (لاريب فيه) فلا ينبغى أن نتردد فى أنه من عند الله لأن فيه من الأدلة والبراهين ما ينفى كل شك . وأنه (هدى) يكفل سعادة الدارين (للمتقين) الذين سبق فى علم الله هدايتهم بما خلق فيهم من الاستعداد لتقبل الهداية ، وهم من تتوفر فيهم صفتان : الأولى الإيمان بالغيب وما يترتب على هذا من العمل لإرضاء الله بالنفس والنفيس . والثانية

التصديق بما أنزل على الرسول من عند الله من الأوامر والنواهى والأخبار، وقد عرّفهم سبحانه وتعالى بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) فيطمئنون إلى أن وراء هـــذه المحسوسات أشياء أخرى غير منظورة يقرها العقل ويسلم بها . لأنها من الحقائق اليقينية الثابتة .

فهؤلاء يسهل تصديقهم بما أخبر به الرسل . أما من لايعرف من الوجود غير هذه المحسوسات فمن الصعب العسير تصديقهم بما جاء فى القرءان من وعد ووعيد وأخبار عن الله واليوم الآخر ، وتسليم الناس بعالم الغيب مما يدلهم على وجود إله قاهر قادر متصرف فى المخلوقات والكائنات ولو لم يدركوا كنهه ، الأمر الذى يجعلهم يعملون على التقرب منه .

(ويقيمون الصلاة) خالصة لوجه الله فيتملك الخوف والفزع من قلوبهم فيطمعون فى رحمة الله وترقّ قلوبهم فيشفقون على البائسين وتأخذهم الرأفة على الفقراء والمساكين (ومما رزقناهم ينفقون) لأنهم علموا وشعروا بأن الأموال التى تحت أيديهم ما هى إلا من عند الله وهى وديعة وعارية عندهم، والله سبحانه وتعالى قادر على ردها واسترجاعها وسلبها منهم . فلا غرو إذا ما قابلوا إحسانه بالحمد والشكران ، ونعمة رزقه بالانفاق فى سبيله ، وكل هـذا بدافع الإدراك العقلى والباعث النفسانى .

ومن كان هذا شأنه وحاله ، فهو على استعداد لقبول الهداية الإلهية لأن الله سبحانه قد خلق فيه المؤهلات والأسباب المؤدية للإيمان الصادق واليقين الصحيح على حد قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح

صدره للاسلام » ثم أشار سبحانه وتعالى إلى الصفة الثانية للمتقين بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) وهو القرءان (وما أنزل من قبلك) على الأنبياء السابقين من الكتب التى أخبرتهم عنها (أولئك على هدى من ربهم) فى الحياة الدنيا لأنهم خلقوا مؤهلين لقبول الدعوة بما أودع الله فيهم من قلوب واعية رقيقة لدنة لينة ، وقد اهتدوا بالفعل بهدى القرءان وآمنوا بالكتب المنزلة جميعها على أنها من عند الله وأيقنوا وتحققوا باليوم الآخر كما حدثتهم عنه (وأولئك هم المفلحون) لأنهم آمنوا بالله الإيمان الكامل وآمنوا بالقرءان وما تقدمه من الكتب السماوية المنزلة على الرسل ، أما من لم يكن القرءان له هاديا ولم يؤمن الرسول وما أنزل عليه فلا ثمرة ولا نتيجة لجهوده ، ولو أنه آمن بالغيب وصلى وتصدق ، إذ العبرة باجتماع الشرطين اللذين أخبر عنهما الله فى هذه الآية .

المغزى :

تدل هذه الآيات على ما يأتى :

١) إن أصدق الخبر ما صدر من لدن صاحبه .

٢) إن مبدع الخلق أعلم بما يصلح عباده .

٣) إن الهداية الإلهية لا يمكن أن تؤثر إلا فيمن توفرت فيهم صفتان

ا — الاستعداد الفطرى لتقبل الهداية .

ب — توفر الملكة العقلية التى تؤهل صاحبها إلى البحث فى آيات الله والوصول إلى معرفته وصحة رسالة رسله والتمييز بين الحق والباطل .

الحكم :

وجوب تعميم دراسة القرءان الكريم دراسة تدبر وتفكر ، لأنه كفيل بالهداية .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) .

اللفظ :

(كفروا) جحدوا (سواء) المساواة : المعادلة (أنذرت) أعلنت وحذرت (يؤمنون) يطمئنون (ختم) طبع (قلوب) القلب : عضو صنوبرى الشكل مودع فى الجانب الأيسر من الصدر إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله (سمع) حاسة الأذن (أبصار) حاسة العين (غشاوة) غطاء (عذاب) شدة الايلام (عظيم) ما اتصفت أجزاؤه المتصلة بالكبر .

المعنى :

بعد أن أخبر الله نبيه بأن ذلك الكتاب هدى للمتقين أكد له بأن غير هؤلاء يعدون كفارا . حيث قال (إن الذين كفروا) بعالم الغيب

وجحدوا وجود الله وأنكروا آياته ورسله واليوم الآخر (سواء عليهم ءأنذرتهم) بعذاب الله (أم لم تنذرهم) به (لا يؤمنون) بما أنزل إليك لأنهم لم يدركوا غير هذه الماديات فلم يتصوروا وجود خالقها فكيف يؤمنون بالله أو بنبي من قبله أو كتاب منزل من عنده؟ أو لأن نفوسهم الشريرة أبت عليهم الإصغاء إلى أقوالك وتدبر ما أنزل إليك من الآيات البينات حيث كتبوا فى الأزل من المغضوب عليهم، وقد (ختم الله على قلوبهم) فأصبحت قاسية متحجرة معاندة ليس فيها الاستعداد الكافى لقبول الهداية الإلهية (و) لذلك (جعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ستارا وحجابا حال بينهم وبين سماع القرءآن ورؤية آيات الله ماثلة أمام أعينهم من المخلوقات والكائنات :

ولله فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد

فهو المبدع المتصرف فى العوالم والموجودات فإذا لم تهدهم سنن الكائنات أولا وقبل كل شىء إلى الإيمان بوجود الله ولم ترشدهم كتب الله ثانيا إلى معرفته حق المعرفة وتحثهم على طاعة أمره واجتناب ما نهى عنه، فلا بدع إذا ما استحقوا حلول الغضب عليهم والنكاية بهم ولا جرم أن ينالوا جزاءهم يوم القيامة (ولهم عذاب عظيم) شديد الإيلام جزاء كفرهم وجحودهم.

المغزى :

تدل هاتان الآيتان على ما يأتى :-

(١) أن من كان مجبولا على العناد والجحود لا تنفع فيه العظات ولا ترجعه عن غيه الآيات والنذر.

(٢) أن من لا يوصله استعداده الفطرى إلى تلمس آيات الله المشاهدة فى نفسه وفى عجائب مخلوقاته فذلك مريض ومصاب فى قواه العقلية ومشاعره الحسية .

(٣) أن من يجلب على نفسه جناية أو يوقع نفسه فى مرض فإنه مؤاخذ على ما اقترفه وسيجزى على عمله .

الحكم :

لا يجوز الكف عن نشر الدعوة الإسلامية واليأس من نتائجها ولو لم يؤمن بها أحد .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا

قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

اللفظ :

(يخادعون) بضم الياء وكسر الدال مع إثبات الألف وقرئ (يخدعون) بفتح الياء وإسكان الخاء وفتح الدال من غير ألف : يظهرون خلاف مايضمرون (يشعرون) يحسون (مرض) فساد فى المزاج (عذاب) مايشق على الانسان (أليم) موجع (يكذبون) بفتح الياء وتخفيف الذال ، يقولون غير مايعملون، وقرئ (يكذبون) بضم الياء وتشديد الذال أى لا يصدقون (تفسدوا) تخربوا (مصلحون) محسنون (السفهاء) أصحاب الأخلاق المرذولة الرديئة (يعلمون) يعرفون (خلوا) انفردوا فى خلوة (شياطين) المتمردين من الانس والجن (مستهزؤن) ساخرون (يمدهم) يمهلهم (طغيان) الاسراف فى الظلم والمعاصى (يعمهون) يتردون فى الضلال (اشتروا) ابتاعوا (الضلالة) الباطل (الهدى) الرشاد (ربحت) كسبت (تجارة) البيع والشراء (مهتدون) سالكون طريقا معبدا يوصل إلى الغاية .

المعنى :

بعد أن أخبر الله نبيه بأمر المتقين والكافرين أراد أن ينبهه إلى أن هناك صنف آخر هم المنافقون فقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) بألسنتهم (وماهم بمؤمنين) حقا وهم يظنون أنهم باعلان الإيمان باللسان دون القلب (يخادعون الله) العليم بما فى نفوسهم المطلع على ما تكنه قلوبهم (والذين آمنوا) المصدقين لأقوالهم (وما يخدعون) فى الواقع (إلا أنفسهم) لأن دعواهم الإيمان بألسنتهم خُدعة لاتقبل ولا تخفى على الحق سبحانه العالم المطلع على مافى النفوس والقلوب ، ولا تدرأ عنهم عذابه . ورضاء المؤمنين عنهم فى هذه الحياة لا يقيهم من الله شيئا فهم بذلك قد أضروا أنفسهم (وما يشعرون) بمبلغ الضرر الذى تردوا فيه من كفرهم بالله ومخادعتهم له ، لأن هذه المخادعة منهم دليل على عدم معرفتهم لله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لايخدع (فى قلوبهم مرض) ومرض القلب هو عدم طمأنينته واستقراره (فزادهم الله مرضا) إذ ابتلاهم بمرض الخوف من الناس فأصيبوا بداء عضال هو داء النفاق وعرضوا أنفسهم بذلك لنقم الله .

(ولهم عذاب أليم) فى الآخرة (بما كانوا يكذبون) بدعوى الإيمان فى الحياة الدنيا (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) أى انتهوا عن هذا النفاق ولاتشككوا الناس فى عقائدهم ولا تغيروا نفوسهم وأفكارهم بما تبثونه من الخوف من غير الله (قالوا إنما نحن مصلحون) لا نريد غير الإصلاح ورضاء الناس (ألا إنهم هم المفسدون) لفساد أعمالهم ونفاقهم فى أقوالهم وأفعالهم ، والنفاق مصدر الشرور .

وأساس البلاء ، وعامل الدمار والأرزاء ، وأكبر معول لهلاك العالم (ولـكن لا يشعرون) بهذه الحقيقة ويحسبون أنهم على حق ، وأن من الإصلاح ما هم عليه من هـذا الخلق الذميم ، والفعل والقول الأثيم ، (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) وقولوا كلمة الحق الصراح وانشروا الدعوة المحمدية الاسلامية بكل جراءة وبصوت الحق ولسان الصدق (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) من الناس الذين يعرضون أنفسهم للأخطار ويقبلون الهجرة ، فينزحون من ديارهم ، ويهجرون بلادهم ، ويتركون أوطانهم ، ويتخلون عن عوائد وتقاليد آبائهم . لهذا رد الحق سبحانه عليهم بقوله (ألا إنهم هم السفهاء) لأنهم اتخذوا الجبن ديدنا واستولى عليهم الخوف فكان لهم منهجا ، فحقت عليهم كلمة العذاب والمذلة والضيم والهوان ، وألفوا المداهنة فلم يعد أحد يثق بهم فى جميع أفعالهم وأقوالهـم ، ولم يكن لهم مبدأ يتمسكون به ، فلم يثبتوا فى أعمالهم ولافى آرائهم ، وهـــذا شأن القوم الذين لامبدأ لهم ؛ فإن أصحاب المبادئ الصحيحة ، السعادة غايتهم ، والعزة رائدهم ، والـكياسة ديدنهم ، فلا يذعنون إلا لصوت الحق ، ولا يدينون إلا للصدق ، فالايمان بالله قائدهم ، والعقيدة الاسلامية منارهم، وعنوان حياتهم ، لأن الثبات هو دعامة النجاح ، والصراحة بالحق سبيل الرشاد والفلاح ، وإن الجبن والخوف ، وعدم التمسك بالمبادئ الصحيحة من أكبر أسباب الخذلان والهزيمة ، وليس للمخذول قيمة . والناس من خوف الذل فى ذل ، ومن خوف الفقر فى فقر ، ولينصرنّ الله من ينصره (ولـكن لا يعلمون) كنه الايمان ولا حقيقته ، حتى يميزوا بين الحق والباطل ، ويفرقوا بين السفهاء والعقلاء ، ولهذا فقدوا إدراك ما فيه مصلحتهم ،

وتجافوا عن مصلحة غيرهم ، فهم لايشعرون ولا يعلمون ولا يحسون ، لأنهم لم يتذوقوا حلاوة الإيمان ، فهم عن الهداية مبعدون ، ومن نيل الخير والاسعاد محرومون ، ومن أجل ذلك ظلوا فى حالة غير مستقرة ، يخافون من كل شىء ويتزلفون إلى كل إنسان وسلطان ، وقلوبهم متحجرة قائمة على الجحود والكفران .

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) ليستميلوهم ، ولينالوا حبهم بالتلبيس عليهم عند الاجتماع بهم فيقولون كذبا وبهتانا آمنا كإيمانكم وصدقنا كتصديقكم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) من كبار المشركين ودعاة الفتنة والإفساد (قالوا إنا معكم) مجتمعون فى الرأى على عدم الإيمان (إنما نحن مستهزئون) بهذه الدعوة إنا نظهر لهم الإيمان استهزاءً بهم ولأجل أن نقف على أسرارهم . ولقد فاتهم أن (الله) هو الذى (يستهزئ بهم) فلا يهديهم إلى سبيل الحق، ويتركهم فى ضلالهم يتخبطون، وفى عتوهم وكفرهم مغرقون ، وفى غياهب الضلالة تائهون حائرون . (ويمدهم) بأن يمهلهم ويجعلهم (فى طغيانهم يعمهون) لينالوا جزاء هذا النفاق (أولئك الذين اشتروا الضلالة) من عادات وتقاليد عاتية ظنوا الخير فيها (بالهدى) الذى جاءهم من عند الله وهو الدين الحق ، فرغبوا عن سبيل الهداية وطريق الاستقامة ، ومالوا إلى ما كانوا عليه فى الأزمنة الخالية وهى تجارة مزجاة غير رابحة ، ولو كانوا من أصحاب العقول الراجحة ، وسلمت فطرتهم من ظلمات الجهل والغواية ، لأدركوا الحقائق ومغزاها ، ونالوا الكمالات ومزاياها ، ولكن كتب الشقاء

عليهم لتمسكهم بالباطل ، فأصبحوا من الخاسرين أعمالا لأنهم لم ينالوا الهدى ونوره الذى جاءهم من عند ربهم ، وهو الدين القيم ، والحق المبين ، المدعم باليقين (فما ربحت تجارتهم) فى الحياة الدنيا لأنهم عطلوا عقولهم عن فهم كلام الحق فلم يفهموه لتمسكهم بالعادات والتقاليد ، وتحكمت فى نفوسهم الغواية ، فأهملوا مواهبهم ، وأطفأوا نور الهدى بما تهوى أنفسهم من الضلالات التى آثروها فلم تكسبهم عزة ولا سلطانا ولا راحة ولا اطمئنانا (وما كانوا مهتدين) فى دينهم . لأنهم باعوا ما وهبهم الله من نور العقل ، وإشراق الفكر ، ونور الإيمان ، بغياهب الأسر للتقاليد ، وظلمات الهوى والشهوات .

المغزى :

تدل هذه الآيات على ما يأتى :—

(١) أن المظاهر الخداعة والأساليب الزائفة والعبارات المكلفة لا تعبر غالبا عن حقائق ما تطويه القلوب وما تكنه الضمائر ، فلا ينبغى لعاقل أن يخدع بها .

(٢) أن من يحاول أن يخدع الله والناس إنما يحاول باطلا بل هو مخدوع بنفسه .

(٣) أن الخوف مرض نفسى يؤدى إلى داء عضال عسير البرء وهو النفاق .

(٤) أن عدم قبول النصيحة مما يعرض الانسان إلى الوقيعة والفضيحة .

(٥) ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها فلا يثق به أحد لتقلبه ، وهذا الصنف من الناس شر ما تبتلى به الأمم .

الحكم :

يؤخذ من سياق هذه الآية أن النفاق من الكبائر التى توجب القتل وقد استنتج العلماء من عدم قتل النبى للمنافقين حكمين :

(١) أن القاضى لا يجوز له أن يقتل بعلمه وإن اختلفوا فى جواز الحكم بعلمه .

(٢) أنه يجوز للقاضى عدم إقامة الحد إذا كانت هناك مصلحة لتأليف القلوب وعدم تنفيرها .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ، وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) .

اللفظ :

(مثلهم) المثل : الشبيه والنظير ، وهو حال الشيء وصفته « ولله المثل الأعلى » (استوقد) أشعل (نارا) جوهر لطيف مضيء محرق . (ضاءت) النار وأضاءت وأضاءته النار : بمعنى أظهرته بضوئها وأنارت (حوله) الجهات المحيطة به (ذهب) مضى (نورهم) النور ضد الظلمة (ترك) أهمل وصير (ظلمات) خفاء النور وذهابه (لا يبصرون) فقدوا بصرهم وبصيرتهم أى عقولهم وفطنتهم (صم) ذهب سمعهم ، وهو آفة تمنع السماع (بكم) البكم الخرس (عمى) والعمى عدم البصر لمن ذهب بصرهم وكان من شأنهم الإبصار (يرجعون) يعودون (صيب) المطر ونزوله (رعد) هو صوت السحاب واحتكاكه ببعضه (برق) نور وضياء يصحبان السحاب (يجعلون) يضعون (الصواعق) سهام نارية تسقط من السماء مع شدة الرعد (حذر) خاف وتأهب (محيط) شامل ومحدق من جميع النواحي (يكاد) يهم ولم يفعل (يخطف) الخطف : هو أخذ الشيء بعجلة وسرعة واستيلاء وسلب (مشوا) نقلوا أقدامهم من مكان إلى مكان بإرادة منهم (أظلم) اختفى نوره (قاموا) ثبتوا فى أماكنهم (شاء) أراد وقدر (ذهب) صار ومضى (قدير) قوى عليه .

المعنى :

ضرب الله مثلا للمنافقين فقال : (مثلهم) مثل كل واحد منهم حيال الإيمان ، كمثل الذى استوقد ناراً ضئيلة لا تستند إلى أساس يمكنها من

البقاء (فلما أضاءت ماحوله) أى فما كادت تضئ ماحوله حتى (ذهب الله بنورهم) فأطفئت تلك النار من تلقاء نفسها، شأن كل شيء لا أساس له سرعان مايتحلل ويفنى ويزول بحكم النظام الكونى الذى يقضى بذلك (وتركهم فى ظلمات) حالكة دامسة (لايبصرون) سبيل الخلاص والانقاذ من غياهب الظلمات ؛ وهذا شأن المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان ويظهرون غير مايبطنون ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم من الكفر والزيغ، والله يعلم ماتكنه نفوسهم من الجحد والغايات والرغائب النفسية مما يعود عليهم بالخسران ولايجديهم نفعاً، وسيظلون يتخبطون فى غياهب ظلمهم لأنفسهم ويرزحون تحت أثقال الحياة وتكاليفها، وقد حجب عنهم سبيل الرشاد وطريق الاستقامة المثلى إذ هم (صم) عن سماع النصائح والوعظ (بكم) عن طلب الاسترشاد والوقوف على الوسائل المنجية لهم (عمى) عن رؤية ما بين أيديهم من الآيات الواضحة الكونية المحسوسة التى تنطق بالبينات وتشهد بالقدرة والمعجزات (فهم لايرجعون) عن غيهم، لانغماسهم فى كفرهم ونكرانهم وتمسكهم بنفاقهم الذى أشرب فى قلوبهم وأرداهم فى غوايتهم، وقد ضرب الله مثلا آخر لموقف الإيمان حيال المنافقين فقال: (أو كصيب من السماء) فإن القرءان بآياته الباهرات حيالهم كمطر ينزل من السماء فيه المدهشات (فيه ظلمات) خوارق وأمور يشفقون من مغبتها وشدة وقعها على النفوس، كعوارض البرودة وهوهوج الرياح، ووعرة الطريق وتنكبها (ورعد) ينتج من احتكاك السحاب ببعضه يخيف السامعين ويرهب الناظرين (وبرق) يبعث الآمال فى نفوس بنى الإنسان، فماذا يكون موقف قصار النظر حيال هذه الظاهرة؟ إنهم لم يسروا بها ولم

يتحملوا آلامها مقابل ما سيجنونه من ورائها، بل هم (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) إنهم يخافون الموت ويتوقعون الهلاك، ولكنهم لجهلهم وعدم تبصرهم يتقونه بما لا يتقى به أو بما لا تدفع به الغوائل عادة فوضع الأصابع في الآذان لا يمنع عنهم وقع الصواعق ولا هي من موانع الصواعق، ولا هي مما يدفع عنهم الموت (والله) مرسل تلك الصواعق ومنزلها ولا رادّ لها إلا هو (محيط بالكافرين) فلا راد لقضائه وقدره ولا هم يحذرون بأسه وأمره بوقوع المحتوم ولا ينجي حذر من قدر والله عليم بما في ضمائرهم قادر على هلاكهم أينما كانوا وحيثما حلوا، وإن ما صنعوه من الوقايات لا يغني عنهم من الله شيئاً ومهما تعددت الأسباب وتنوعت فالموت واحد (يكاد البرق يخطف أبصارهم) من شدة الضوء وهم والحالة هذه لا يحاولون الاستفادة منه بكل معنى الاستفادة وتتبع الخطط المعقولة والطرق النافذة المخلصة من المهالك ؛ بل إنه (كلما أضاء لهم) ذلك البرق تظاهروا بالاستفادة من ضوئه و (مشوا فيه) على غير هدى (وإذا أظلم عليهم قاموا) وظلوا في أماكنهم لأنهم في الواقع ونفس الأمر في حيرة لا يعلمون طريقاً سوياً يسلكونه وهكذا شأن المنافقين التائهين في غفلتهم المستبدين بجهالتهم حيال القرءان الكريم أو الدعوة الإسلامية، فإنها رحمة من الله جاءت بالتعاليم الدينية الحنيفية وفيها الأمر والنهي والوعد والوعيد والانذار والتبشير. أحكام لم تكن مألوفة لهم فيها مشاق العبادات والمعاملات في حدودها، وكبح جماح النفس عن شرورها وتهذيبها، وتطهير القلوب من الدنايا والتجافي عنها، واقصاء الجوارح والنفس عن الشهوات، وإرشاد الناس إلى طريق الهداية وسواء السبيل. ولكنهم يجحدون نعمة تلك الرحمات ويصمون

آذانهم عن سماع الآيات البينات ، وكلما جاءهم الإيمان بما يوافق أهواءهم اتبعوه ، وإذا جاءهم بما لا تهوى نفوسهم عكفوا على ضلالهم وأعرضوا عنه وجافوه (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) أى بحواسهم الظاهرة كما ذهب بحواسهم الباطنة ، وقد جردوا من الشعور والحساسية، وسلبوا القوة العاقلة فلم يسمعوا الهداية، والعظات ولم ينظروا ليبصروا الآيات ، حيث علم الله فيهم النفاق بأجلى معانيه ، فأراد أن يقيم عليهم الحجة بالأدلة القاطعة (إن الله على كل شىء قدير) يخلق الأسباب ويبنى عليها المسببات ، ويرتب عليها الجزاء وهو المتصرف فى كل شىء ، يفعل فى ملكه ما يشاء ويقضى بين عباده بما يريد .

المغزى :

تدل هذه الآيات على ما يأتى :

(١) أن من يدعى لنفسه ما ليس فيه ، وإن أدخل على الناس ما يدعيه ، فقد أضل نفسه وأضرها ، ولا بد للزمن أن يظهر حقيقته ويكشف أمره .

(٢) أن من الجهل والخسران أن يمهد الله للمرء سبيل الهداية للوصول إلى غاية صالحة مفيدة ، فيداخله الشك ، ويستولى عليه الخوف ، ويقوده العناد والتعنت إلى السير على غير هدى حتى ينقضى الوقت ، وتضيع الفائدة ، ويحرم من نعمة الهداية ويبوء بغضب من الله .

الحكم :

تحريم النفاق بجميع أنواعه وضروبه .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

اللفظ :

(الناس) اسم جمع للجميع (اعبدوا) ادعوا (خلقكم) أوجدكم من العدم (تتقون) تخافون (جعل) صنع وصير (فراشاً) الفراش ما ينام عليه (بناء) ما بنى (أنزل) جعله نازلا وهابطا من علو إلى أسفل (أخرج) أبرز (الثمرات) حمل وطرح الشجر (رزقا) كل ما ينتفع به (أنداداً) أمثالا ونظراء (تعلمون) تدركون الأشياء بكنهها وحقيقتها .

المعنى :

بعد أن أخبر الله نبيه بأمر المتقين والكافرين والمنافقين ، أمره بالقيام بواجب الدعوة إلى الله فقال قل يا محمد (يا أيها الناس) والخطاب عام لجميع الطبقات وللسامعين لهذا النداء بصورة خاصة (اعبدوا ربكم)

أدعوه لقوله صلى الله عليه وسلم «الدعاء مخ العبادة» وفى رواية «الدعاء هو العبادة» وإخلاص العبادة : هو أن لا تلجئوا ولا تتجهوا بالدعاء فى كل أمر من أموركم إلا إلى الله ، لأنه هو المنفرد بالربوبية، وتوجيه الدعاء له دليل قاطع على الاعتراف بقدرته والإذعان لإمرته ، فهو على كل شىء قدير ، وهذا إقرار منكم بعجزكم عن إدراك أية غاية أو دفع أى ضرر إلا بإرادته ومعونته وتوفيقه ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى (الذى خلقكم) وأوجدكم من العدم (والذين من قبلكم) ، وإذا كان هو وحده الموجد لكم جميعاً من العدم والمربى لكم فى الحياة ، فما كان لكم أن تعتقدوا قدرة غيره على جلب النعم ، أودفع الضرر عنكم ، وما كان لكم ، وما يكون منكم أن تطلبوا قضاء مصالحكم وحاجياتكم وأداء مطالبكم من غير مولاكم الذى خلقكم وتولاكم وبنعمته والاكم (لعلكم) بهذا التوجه إليه والتفكير فى عظمته وهيمنته الربانية وأنه محل الرجاء (تتقون) فتراقبون أنفسكم وتدركون هذه الحقيقة القدسية فى رب البرية ، فتخافون وتتفكرون فى خلق السماوات والأرض. وتمعنون النظر كرة أو كرتين فى بدائع آلائه ومدهشات صنعه وتطوفون بتلك الكائنات فتذعنون وتقرون لقدرته فتحبون موجدها وخالقها (الذى جعل لكم الأرض فراشاً) ممهداً صالحاً لحياتكم وأعمالكم اليومية والليلية من مأكل ومشرب ونوم وراحة (والسماء بناء) متقنا محكما متماسكا حافظاً لتوازنه، ولولا ذلك الفضل من ربكم لفقدتم الراحة من جميع نواحيها ، وهجرتكم الطمأنينة فى سائر أحوالكم من الأحداث وما فيها ، ولكنتم عرضة لوقوع الكوارث مهددين فى الحياة الدنيا بسقوط السماء أو مختلف الطوارىء

وما ينتج عنها (وأنزل من السماء ماء) ليس فى مقدوركم الوصول لمعرفة كنهه ولا حقيقة تركيب عناصره وأبعاده ومواده ، وكيف خلق؟ ومن أين جاء ؟ أو كيف يحيي به الأرض بعد موتها ؟ (فأخرج) بمحض قدرته وإرادته (به) بمجرد هذا الإنزال من غير أن يكون لكم أى مجهود فى ذلك (من الثمرات) نباتا وزرعا وطيبات تأكلون وتتغذون منها أنتم وأنعامكم فتدرّ عليكم ألبانها وأصوافها (رزقا لكم) تنتفعون منه بشتى الفوائد والخيرات فتصنعون من الألبان بعد تحويلها شتى الأنواع من الأطعمة وتدر عليكم الأرزاق وتفيض عليكم أثمانها بما يحقق لكم ما تريدون فى هذه الحياة الدنيا من مختلف المطالب الضرورية والكمالية ؛ فمن الواجب عليكم أمام هذه النعمة الفياضة والمتعة العظيمة تقدير هذه الهبات (فلا تجعلوا لله) الذى غمركم بكل هـــذه النعم التى لا تنقطع المتسلسلة المتوالية (أندادا) تحبونهم كحبه وتلجئون إليهم فى الشدائد كما تلجئون إليه ، وتدعونهم لقضاء المصالح ، وليس غيره من يقدر على تيسير شىء مما يقدر عليه سبحانه وتعالى وجل جلاله، فلا ندّ له ولا مماثل، وجميع المخلوقات مربوبون له مقهورون وهم فى قبضته (وأنتم تعلمون) أن الأمور كلها بيد الله وأنه إذا استطاع الزارع أن يحرث الأرض ويبذر البذور ويتعهدها بالسقى والخدمة ويكون له كسب فى رزقه فإنه بعمله هذا وبصنعه لايستطيع بحال من الأحوال أن يزعم أنه بمقدوره أو بأية صفة قد أوجد الماء وأنبت الزرع ونوّع أشكاله وأوجد الأشجار وغيرها من النباتات وألوانها والثمرات ومختلف طعومها والأزهار وبدائع جمالها ، وما فيها من الخواص التى لا تقع تحت حصر مما لايعلمه إلا الخالق العظيم ، وقد دعا الله الناس بهذه الآيات

البينات إلى توحيد الألوهية معرضا بتوحيد الربوبية محذرا لهم من الشرك فلا شريك له . وكل شئ فى الوجود ينادى بالوحدانية :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وقد أقام الأدلة والبراهين المحسوسة على أنه سبحانه وحده هو الذى يجيب الداعى إذا دعاه فلا يعبد غيره ولا يعول على سواه .

المغزى :

تدلنا هذه الآية على ما يأتى :—

١ — أن من المعقول أن لا يدعو الإنسان إلا من يعرف أنه موجود وقادر على تلبية النداء .

٢ — لما كان الله هو ربنا وخالقنا جميعا وهو الذى ضمن لنا الراحة وقرر أرزاقنا فى الحياة فمن الواجب والمعقول أن نخصه بالدعاء ولا نلجأ إلى أحد سواه .

٣ — أن توجه الانسان إلى الله بالدعاء نتيجة الاعتراف بربوبيته والإذعان بفيض نعمه بعد تدبر وتفكر مما يؤدى إلى التقوى .

الحكم :

وجوب إخلاص العبادة لله ، وقد أخذ الشافعى من قوله تعالى (جعل لكم الأرض فراشا) حكما هو عدم الحنث لمن حلف أن لا يفترش فراشا ثم بات على الأرض ، لأن اللفظ لا يوجه إليها عرفا . ويرى معظم العلماء أن العبرة بالنية لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى » ، وبناء عليه يحنث إذا نوى بالافتراش الاضطجاع ، ولا يحنث إذا نوى غيره .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) .

اللفظ :

(ريب) شك (فأتوا) أحضروا (سورة) آيات من القرآن (مثله) نظيره (ادعوا) نادوا (شهداء) جمع شاهد : حاضر قائم بأداء الشهادة (صادقين) الذين لا يكذبون (تفعلوا) تعملوا (اتقوا) احذروا وخافوا (وقود) ما يوقد به النار (الناس) اسم جمع واحده إنسان (أعدت) هيئت وأحضرت (الكافرين) الجاحدين لنعم الله .

المعنى :

بعد أن أكد الله تبارك وتعالى بأن ذلك الكتاب لا ريب فيه وبين موقف الناس حيالهم وأمرهم بعبادة ربهم أخذ يدعوهم إلى الإيمان برسوله وكتابه المنزل عليه متخذاً فى ذلك طريق الاقناع والتفاهم ، حيث قال (وإن كنتم) يا أيها الناس (فى ريب) لا تصدقوا بصحة شىء

(مما نزلنا) من القرءان (على عبدنا) محمد رسولنا وتشكون فى صدوره منا (فأتوا بسورة) ولو صغيرة (من مثله) سواء فى أسلوبها وبلاغتها، أو روعتها وطلاوتها وهدايتها (وادعوا) من تعتمدون عليه من شهدائكم الذين يتفقون معكم على مبدإ الإنكار (من دون الله) يؤيدون دعواكم كما أيد الله دعوة عبده ورسوله (إن كنتم صادقين) فيما تدعونه من عقل ودراية فإن فى صدور هذا القرءان من رجل عرف بينكم حق المعرفة - بالأمية - لدليل ساطع على أنه بوحى إلهى وأنه منزل من رب العالمين ولا قدرة لمثله أن يأتى به ولا سيما أنه قد أعجزكم جميعا وأنتم رجالات البلاغة وأساتذة الفصاحة (فإن لم تفعلوا) ولم تستطيعوا الإتيان بسورة من مثله (ولن تفعلوا) لاستحالة هـذا عليكم لأنه من كلام الخالق ولا يمكن للبشر أن يضاهوه وقد تحديتكم بهذا فعجزتم (فاتقوا) تحصنوا بالإيمان بالله ورسوله وبالكتاب من (النار) التى أنذرتكم بها فى القرءان وهى التى (وقودها الناس) الذين يتخذون من دون الله أندادا (والحجارة) وهى الأصنام التى يعبدونها والتى هى أظهر المعبودات عند العرب كاللاّت والعزى وغيرهما، وقد (أعدت) تلك النار (للكافرين) لإحراقهم وتدميرهم ولتصيرهم لها وقودا، ولقد دعا الله الناس بهذه الآيات إلى الإيمان بالقرءان والرسول الذى أنزل عليه القرءان وأقام الأدلة والبراهين على ذلك بأنهم لا يستطيعون الاتيان بمثله، وعقب الدليل على صحة قوله بتهديد المعاندين والمكابرين بنار يصلونها حامية فى يوم القيامة ليسترعى الأذهان والنفوس إلى ضرورة التيقظ والالتفات والتنبيه.

المغزى :

يحذر الله الناس فى هاتين الآيتين من التشكك فى صحة كلام الله ، ويطالبهم بتحكيم عقولهم فيما يدعون والعمل على مضاهاة كلامه إن كانوا يقدرون ؛ وينـــذرهم فى حالة الإصرار والعناد مع العجز بعذاب أليم .

الحكم :

وجوب الإيمان بأن القرءان هو كلام الله وأنه منزل على رسوله .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) .

اللفظ :

(بشر) بلغ خبرا مفرحا (عملوا) صنعوا (الصالحات) الحسنات العظيمة (جنات) حدائق ذات أشجار دائم نعيمها (تجرى) تسيل (الأنهار) الماء الجارى المتسع (رزقوا) نالوا (متشابها) متماثلا (أزواج) جمع زوج : البعل والزوجة من الذكر والأنثى (مطهرة) نظيفة من الأدران والأقذار (خالدون) باقون بقاء لا آخر له .

المعنى :

بعد أن أثبت الحق سبحانه وتعالى الرسالة بما تحدى به الناس من الإتيان بمثل ماأنزل على الرسول وعرّض بذكر ما أعد من عذاب يوم القيامة عقب على ذلك بالإخبار عما هنالك من نعيم مقيم جمعا بين الترغيب والترهيب ، حيث قال (وبشر الذين آمنوا) بالله وآياته ورسوله (وعملوا الصالحات) مما أمروا به من الطاعات (أن لهم) فى الآخرة مثلما لهم فى الدنيا من (جنات) كلفوا بحبها والحنين إليها فى هذه الحياة (تجرى من تحتها الأنهار) بشكل أجلّ وأعظم وأجمل مما يخطر على البال بحيث لايجدون هناك فروقا بين الحياتين، إلا أن الحياة الدنيا كانت مشمولة بالشقاء مشوبة بالتعب والنصب مهددة بالفناء والزوال ؛ وتلك الأخرى هى محل الاستقرار والهدوء ، محل الراحة والاطمئنان والدوام (كلما رزقوا منها) من تلك الجنات فى الآخرة (من ثمرة رزقا) فرحوا به و(قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فالحمد لله الذى أطعمنا فى هذه الحياة ما كنا نلتذ به فى الدنيا ولا نكاد نجده إلا بشق الأنفس وفى مواسم مخصوصة وها نحن نجده الآن ميسورا فى كل آن (وأتوا به) فجاءهم الرزق (متشابها) لكمال هناءتهم ، فلولا هذا التشابه بين ثمار الآخرة وثمار الدنيا لما أعجبوا به كل هذا الإعجاب ووجدوا به منتهى السرور والارتياح ، فالنفس ميالة إلى حب ما جبلت عليه وألفته ولو كان مرا، ومن شأنها أنها تنفر مما لم تألفه ولو كان شهيا شهدا (ولهم فيها أزواج) فالمرأة تجد لها بعلا والرجل يجد له زوجة (مطهرة) من كل عيب

خلق وجسمانى (وهم فيها خالدون) وسيظلون على تلك الحال فى الجنة لا يخرجون منها ولا هى تفنى فيزولوا بزوالها ، جعلنا الله فى زمرتهم وكتبنا فيهم ومنهم بفضله وكرمه .

المغزى :

تدلنا هذه الآية على :—

١ — أن المؤمن إذا سار فى حياته على هدى القرءان وصلح عمله فقد ضمن الله له الجنة وعدا عليه حقا .

٢ — أن الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين أوصافها كالآتى :—

ا — الرزق فيها ميسور من غير تعب أو نصب .

ب — الأنهار تجرى من تحتها .

حـ — ثمارها مشابهة لثمار الدنيا فى النوع ، وتمتاز بإبداع حسنها وألوانها .

ء — الزواج بها ميسور للرجال والنساء على حد سواء .

هـ — نعيمها خالد لا يزول .

الحكم :

أجمع العلماء أن البشرى هى النبأ المفاجئ الذى يُدخل السرور على النفس ، فبنوا على هذا حكما هو أنه لو قال رجل لعبيده أيكم بشرنى بكيت وكيت فهو حر فبشروه بذلك واحدا واحدا (فرادى) عتق أولهم ، بخلاف ما إذا قال أيكم أخبرنى بكذا فهو حر فأخبروه بذلك فرادى عتقوا جميعا عند الشافعى وعند غيره (لا) بل العبرة بما نوى من معنى الخبر .

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

اللفظ :

(يستحيي) يمتنع (يضرب) يجعل ويبين (مثلا) شبها ونظيرا (بعوضة) الحيوان المعروف (ما فوقها) ما زاد عليها (الحق) ضد الباطل (أراد) أحب (يضل) يصيره إلى الضلال (يهدى) يرشد (الفاسقين) الخارجين عن طريق الحق والصلاح .

المعنى :

بعد أن أثبت الله سبحانه أن هذا القرءان قد نزل من عنده وتحدى الجميع على الاتيان بسورة من مثله قرر حقيقة أخرى هى أنه لا يطعن فى فصاحته وبلاغته أنه جاء مليئا بالأمثال فقال (إن الله لا يستحيي أن يضرب) فى القرءان (مثلا ما بعوضة) أى بالبعوضة ومثيلاتها كالذباب أو العنكبوت (فما فوقها) ما فاقها فى مرتبة الصغر والحقارة (فأما الذين آمنوا) بأنه من عند الله (فيعلمون أنه) ما جاء بهذه الأمثال إلا لزيادة الإيضاح والتبيان وليخاطب الناس على قدر عقولهم ويقرب الأمر إلى

أذهانهم فهو (الحق) الذى لا مراء فيه (من ربهم) فيحملهم هذا العلم على التفكير فى حقائق الأشياء والتأمل فى بدائع المخلوقات فيزدادون إيمانا (وأما الذين كفروا) بالقرءان وجحدوا تنزيله من عند الله (فيقولون) لقصر نظرهم (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى ما هو الداعى لهذا المثال، ولو سلمت نفوسهم من الريب لتركوا الاعتراض وأيقنوا بأن ذلك لا يخلو عن حكمة، ولعل فى ذكر مثل من هذه الأمثال فى القرءان ما يمتحن الله به قلوب عباده وذلك أن (يضل به كثيرا) نتيجة اعتراضهم وريبتهم (ويهدى به كثيرا) جزاء إيمانهم وتسليمهم (وما يضل) الله (به) بما ذكر من الأمثال (إلا الفاسقين) الذين بينهم الله سبحانه وتعالى فيما بعد حيث وصفهم بصفات ثلاث: هى نقض العهد، وقطع مايجب أن يوصل، والافساد فى الأرض، وسجل عليهم بذلك الخسران المبين.

المغزى:

تدل هذه الآية على ما يأتى:—

١) لا غرابة ولا دهشة أن يضرب الله للناس الأمثال مهما كان شأنها فى الحقارة أو العظم عظة وإرشادا.

٢) إذا كان فى القرءان مالا يتضح معناه لبعض السامعين فإنه يعد ميزانا لمعقولات الناس حيث تثبت به قلوب المؤمنين وتزيغ منه قلوب الضالين الفاسقين.

الحكم:

يجب الاعتقاد بأن كل ما جاء فى القرءان إنما وضع لحكمة ويحرم التشكك فيه والاعتراض عليه.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

اللفظ :

(ينقضون) يفسدون الأمر بعد إحكامه (عهد) الضمان والذمة (ميثاق) عقد مؤكد بيمين (يقطعون) يفصلون (يوصل) يربط بعضه ببعض (يفسدون) الفساد الإساءة إلى النفس والغير (الخاسرون) الضالون الهالكون .

المعنى :

بعد أن ذكر الله فى الآية السابقة الفاسقين أراد أن يبين من هم المقصودون بذلك فقال هم (الذين ينقضون عهد الله) الذى أخذه عليهم بتعاليم الرسل والأنبياء من حفظ حواسهم واستعمال مواهبهم فيما خلقت لها ، والوفاء للناس فيما عاهدوهم عليه (من بعد ميثاقه) وتدعيمه بالإيمان بالله وتصديق رسله وكتبه ، أو تأكيده للناس بالحلف بالله ، لما يترتب على نقض العهد الأول من اختلال النظام الكونى وعموم الفوضى فى جميع الشئون .

ويترتب على نقض العهد الثانى انتزاع الثقة بين الناس فى جميع معاملاتهم ، وفقدان التعاون فى المحافظة على مرافق الحياة ، (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من روابط المودة والإخاء بين المسلمين عامة

والأقربين من ذوى الرحم والجيرة خاصة لما يترتب على ذلك من التقاطع بينهم وحلول العداء محل الوئام والولاء (ويفسدون فى الأرض) بارتكاب المحرمات التى لم يمنع الله من إتيانها إلا لما فيها من المضرات اللاَّحقة بالنوع البشرى، فيعم الخراب والدمار وتسود الفوضى، ويختل نظام العمران .

(أولئك) الذين يتصفون بإحدى تلك الصفات الثلاث (هم الخاسرون) الذين أفسدوا بصنيعهم هذا ، فكانت الواقعة منهم ومغبتها عليهم، فخسروا الدنيا ومافيها فلا يجدون نعمة الراحة ولا يتذوقون معنى للسعادة وخسروا الآخرة لأنهم لم يتزودوا لها بمعدات التقوى .

المغزى :

ترشدنا هذه الآية الكريمة إلى أن الفسقة الخاسرين فى الحياة الدنيا ثلاث :—

١ — ناقض العهد .
٢ — العامل لفصم عروة الإخاء بين المسلمين وذوى الرحم خاصة .
٣ — المفسدون فى الأرض بارتكاب المحرمات .

الحكم :

تحريم نقض العهد وقطيعة الرحم ، وقد قسم العلماء العهد إلى قسمين: أحدهما الحلف على الامتناع عن الشىء أو الإقدام عليه من جانب واحد فهذا تجب الكفارة بنقضه . والثانى العهد الذى يرتبط به المتعاقدان على ما يجوز فى الشرع ويلزم فى الحكم إما على الخصوص بينهما وإما على العموم فهذا لا يجوز نقضه ولا تجزى فيه الكفارة .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

اللفظ :

(تكفرون) تجحدون (أمواتا) لاروح فيكم (أحياكم) نفخ الروح فيكم (ترجعون) تعودون (خلق) أوجد من العدم (جميعا) جماعة الناس (استوى) استقام واعتدل وإذا عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء إليه (سواهن) جعلها مستوية غير معوجة (سموات) ما نشاهده فوقنا كقبة زرقاء فى الفضاء الواسع (شىء) ما يصح أن يعلم أو يخبر عنه (عليم) الموصوف بالعلم .

المعنى :

بعد أن أمر الله نبيه بدعوة الناس لإخلاص العبادة له والايمان برسله وكتبه واليوم الآخر والتسليم إلى الله فيما لم تصل أذهانهم إلى فهمه من كتاب الله أخذ يوبخ المعاندين الكافرين على سوء عملهم ويبين لهم أخطاءهم فى هذا الاصرار على الكفر بقوله (كيف تكفرون بالله) وبكل ما طلب منكم الإيمان به ، ولديكم من الحقائق مالو ألقيتم عليها نظرة بسيطة لأفقتم من غفلتكم ورجعتم عن جحودكم (و) قد (كنتم) قبل

خلقكم فى هذه الحياة (أمواتا) لا وجود لكم ولا أثر لأرواحكم بالمرة ، فكوّنكم فى بطون أمهاتكم من نطفة ثم من علقة ثم سواكم لحما وعظما (فأحياكم) بنفخ الروح فيكم ثم أخرجكم إلى هذه الحياة الدنيا (ثم يميتكم) بانتزاع الروح من أجسادكم فى اللحظة التى يقدرها لكم (ثم يحييكم) حياة أخرى برزخية غير هذه بالروح فى العالم غير المنظور (ثم إليه) فى اليوم الموعود وهو يوم القيامة (ترجعون) بأجسامكم وأرواحكم لتنالوا جزاء أعمالكم (هو الذى) عند خلقكم لم يتركم هملا بل (خلق لكم) كل (ما فى الأرض جميعا) من أخضر ويابس وذى روح وغير ذى روح كلها مسخرة لمصالحكم ومهيأة لاستفادتكم منها بمختلف الوسائل وشتى المنافع (ثم استوى إلى السماء) استواء لائقا بجلاله وعظمته (فسواهن سبع سموات) طباقا لمصالحكم ومنفعتكم أيضا فهى تكيف لكم الحرارة والبرودة ، وبكواكبها وأجرامها تستضيئون وتستشفون وتهتدون فى ظلمات الليل البهيم إلى غير ذلك من المنافع التى إن غمت عليكم فإنه سبحانه وتعالى الخالق لها يعلم ثمرتها ومزاياها ، وهو القدير على إرشادكم إليها شيئا فشيئا فى الوقت الذى يريد (وهو بكل شىء عليم) فما يكون لكم أن تكفروا به وتجحدوا كل هذه النعم الجليلة التى أغدقها عليكم ظاهرة وباطنة .

المغزى :

ترشدنا هاتان الآيتان إلى أن التعمق فى البحوث فيما يأتى بدقة ونظر صحيح خال من الأغراض والميل مع الهوى يكسب قوة الإيمان وعظمة اليقين وهى :

١ — خلق الانسان وتكوينه وما يعتريه من تطورات الحياة والفناء .
٢ — قدرة الله فى تسخيره كل شىء وإخضاعه لهيمنة الانسان وسلطانه .
٣ — خلق السماوات وما بها من طبقات وكواكب وأجرام .

الحكم :

استنتج العلماء من قوله تعالى : خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، أن الأصل فى كل شىء الحل والانتفاع به بمختلف الأشكال مالم يرد نص بالتحريم .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

اللفظ :

(الملائكة) أجسام نورانية روحية خفية ذات قوى عظيمة (جاعل) صانع خالق (خليفة) الامام الذى ليس فوقه إمام (يفسد) يعتدى ويأخذ المال ظلما (يسفك) يسيل (الدماء) السائل الأحمر الذى يجرى فى عروق الحيوان (نسبح) نمجد وننزه (بحمدك) بالثناء عليك (نقدس) نطهر أنفسنا (أعلم) أدرك الحقيقة (علم) جعله يعلم (الأسماء) جمع اسم، وهو اللفظ الموضوع على جوهر أو عرض لتعينه وتميزه (عرضهم) أظهرهم وأراهم (أنبئونى) أخبرونى (سبحانك) نبرأ إليك (الحكيم) صاحب الحكمة (غيب) كل ما غاب عن العلم والنظر (تبدون) تظهرون (تكتمون) تخفون .

المعنى :

لقد عدد الله نعمه على الناس حيث ذكرهم بأصل النشأة الأولى عند ما أراد سبحانه خلق الإنسان ، فقال (وإذ قال ربك للملائكة) الذين خلقوا من قبل (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ينوب عنى فى الحكم بالعدل بين المتخاصمين ، وإقامة الحدود على المجرمين ، ونشر السلام بين العالمين ، فأدرك الملائكة من هذا أنه لا بدَّ وأن يكون على البسيطة ظلمة سفاحون يحتاجون إلى من يقيم العدل بينهم ، ولذلك (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) بالظلم (ويسفك الدماء) بالاعتداء (ونحن) قد خلقنا من قبل (نسبح بحمدك) ولا نزال نسبح فى سرنا وجهرنا (ونقدس لك) نعمك وعظيم فيضك ، ولا نعصى لك

أمرا ولسنا فى حاجة إلى خليفة يقضى بيننا فى شأن من الشئون فلماذا تخلق خلقا غيرنا فى الأرض يسير على غير نهجنا ويحتاج إلى نصب خليفة يقيم العدل ويردع الظالم ؟ (قال إنى أعلم مالا تعلمون) لأننى أنا الخالق أعلم بارادتى ، وأعرف ما أرمى إليه ، ولى فى كل ذلك حكمة ، فلولا الظلم لما كان العدل ، ولولا الذنب لما تجلت ثمرة الغفران ، وهذه المخلوقات جميعها ما خلقت إلا لمصلحة الانسان ولا يستطيع استخدامها أحد سواه ، ولأجل أن يبين سبحانه وتعالى مزية الانسان وأهميته فى الوجود ويقنع الملائكة بخطئهم فى تصوراتهم ، عمد إلى آدم فعلمه كل شىء حيث قال (وعلم) الله (آدم) بعد خلقه بالفطرة والالهام النفسى (الأسماء كلها) الدالة على جميع الكائنات والمخلوقات ، وما فيها من أسرار وحكمة ، والعلم بالدليل يستلزم العلم بالمدلول بصفته وحقيقته وخواصه (ثم عرضهم) أى هذه المخلوقات (على الملائكة) مستفتيا عن مجرد أسمائها (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) المسميات (إن كنتم صادقين) فيما تحسبونه لأنفسكم من مكانة علمية جعلتكم تستنتجون من تنصيب الخليفة إيجاد المفسدين السفاحين ، وسوغت لكم الاستيضاح عن حقيقة ما أريد ، وقد عجز الملائكة عندئذ عن معرفة أسماء تلك المسميات لأن الله لم يجعل لهم ملكة هـــذه المعرفة فأدركوا أخطاءهم فيما صدر منهم وأنابوا إلى الله و (قالوا سبحانك) ربنا تبنا إليك (لاعلم لنا إلا ما علمتنا) ومعرفتنا محصورة ضمن الدائرة التى حددتها لنا (إنك أنت العليم) بمقاصدنا (الحكيم) الذى لا يوجد شيئا إلا عن حكمة (قال) الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أى أسماء هذه المسميات (فلما أنبأهم) آدم (بأسمائهم قال) الله للملائكة (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب

السموات والأرض) وها أنا قد ميزت آدم عنكم بالعلم بأسرار هذه المخلوقات وخواصها وقد عجزتم عن إدراك أسمائها فقط ، ومن هـذا تعلمون ثمرة خلق آدم وما أريده من عمار الكون عن طريقه (وأعلم ما تبدون) من ظاهر ماقلتم (وما كنتم تكتمون) من حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة حكمة جعلى الخليفة وخلق للانسان .

المغزى :

تدل هذه الآية على ما يأتى :—

(١) أن الله سبحانه وتعالى هو الذى علم آدم أول دروس فى الحياة وأسرارها والأسماء ومسمياتها .

(٢) أن العلم ضرورى للانسان ، إذ به يصان عما فى فطرته من الظلم والعدوان.

(٣) أن العلم شرط فيمن ولى ولاية الأحكام .

(٤) أن علم الملائكة محدود فى دائرة خاصة وقاصر عن علم الانسان .

الحكم :

وجوب التسليم لله فيما يستعصى علينا فهمه ، والاعتقاد الجازم بأن له فى كل شىء حكمة يعلمها سبحانه .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتٰعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

اللفظ :

(الملائكة) أجسام نورانية روحية خفية ذات قوى عظيمة (اسجدوا) اخضعوا أو ضعوا جباهكم على الأرض (إبليس) روح شريرة خفية (أبى) كره ولم يرض (استكبر) تعاظم فى نفسه (الكافرين) الجاحدين نعم ربهم (اسكن) أقم واتخذ سكنا (الجنة) الفردوس الدائم النعيم (رغدا) عيشا طيبا (تقربا) تدنوا (الظالم) من يضع الشيء فى غير محله ، أو يجور أو ينقص الحق (أزلهما) حملهما على الزلل والوقوع فى المعصية ، وقرىء (فأزالهما) نحاهما (الشيطان) كل عات متمرد (اهبطوا) انزلوا (عدو) خصم (مستقر) موضع الاستقرار والسكن (متاع) ماينتفع به انتفاعا قليلا غير باق (حين) وقت (تلقى) تلقن (تاب عليه) غفر له .

المعنى :

بعد أن ذكر الله الناس بقصة خلق آدم وتمييزه على الملائكة بالعلم ثنى بذكر منة أخرى له عليه ، وهى تفضيله عليهم فى المقام حيث قال (وإذ قلنا للملائكة) بعد أن قامت الحجة عليهم واعترفوا بقصر نظرهم

(اسجدوا) سجود إجلال واحترام لا سجود عبادة « فإن ذلك لا يكون إلا لله » (لآدم) الذى هو أصل السلالة البشرية (فسجدوا) جميعا له (إلا إبليس) فإنه (أبى) إطاعة الأمر (واستكبر) وأخذته عزة النفس أن يسجد لمخلوق يراه فى نظره أحقر أصلا وأحط درجة منه (وكان) بذلك فى علم الله (من الكافرين) المعاندين الذين لم يتهيئوا للطاعة ، وقد تعمد العصيان والتمرد وأصر عليهما فعلا ، فلا غرو إذا ما أضحى بذلك زعيم الكافرين . وكان من نعم الله التى عددها على الناس أيضا أنه أعد لآدم الجنة دار إقامة ، فما رعاها حق رعايتها حتى استحق الاخراج منها حيث قال تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) واتخذاها محل إقامة لكما (وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة) ولم يسم الله لنا تلك الشجرة فيجب أن لا نقول فى تعيينها شيئا (فتكونا) لمخالفتكما لأمر النهى (من الظالمين) لأنفسهم بوضعهم لها فى المستوى الذى لا يليق بهما أن يكونا فيه من العصيان وكفران النعم (فأزلهما الشيطان عنها) أى الجنة بما زين لهما من مخالفة الأمر (فأخرجهما مما كانا فيه) من نعيم الجنة ومتاعها حيث استحقا غضب الله عليهما فما كان منه سبحانه وتعالى إلا أن قال (وقلنا اهبطوا) أيها العاصون من إبليس وأتباعه وآدم وزوجه (بعضكم لبعض عدو) عداوة متأصلة يتوارثها الأبناء عن الآباء ما ذكروا هذه القصة (ولكم فى الأرض مستقر) مؤقت (ومتاع إلى حين) ثم تعودون إلى حياة الخلود الدائمة وهى الحياة الأخرى ، وهذا ما أطمع آدم فى عفو ربه فندم على ما فرط منه وأناب (فتلقى آدم من ربه) عن طريق الإلهام (كلمات) قالها ، وهى على الأصح «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (فتاب عليه)

وتجاوز عن عقابه على تلك الزلة عقابا مؤبدا (إنه هو التواب) الذى يقبل التوبة من عباده (الرحيم) الذى يعطف عليهم لضعفهم وانكسارهم ، ولقد سجل الله بهذه الآيات الكريمة منا عظمى له على الإنسان : الأولى أنه أخضع له كرام خلقه وهم الملائكة حيث أمرهم بالسجود له . الثانية أنه جعل إقامته الدائمة ستكون فى الجنة وأن هبوطه إلى الأرض ما كان إلا لفترة محدودة وعقابا على زلة ارتكبها . الثالثة أنه فتح له فى ساعة الزلة باب التوبة وألهمه من الكلمات ما هو سبيل الغفران .

المغزى :

تدل هذه الآيات على ما يأتى :—

١ — أن الله قد فضل النوع الإنسانى على الملائكة لأنهم كلفوا فى الحياة بتكاليف من شأنها العمل للدنيا والآخرة .

٢ — أن الله قد أخضع لآدم وأبنائه من بعده معظم القوى الروحية الخفية ولم يشذ منها إلا روح شريرة تدعو إلى العصيان ، فمن تابعها زل وهوى ومن قهرها ولم يطعها نجا وفاز بالرضوان .

٣ — أن التعاظم والكبرياء والأنانية هى فى المرء رأس كل بلية

٤ — أن المعاصى تزيل النعم .

٤ — أن التوبة تمحو الذنوب وتستجلب الرضوان .

الحكم :

يجب على من وقع فى معصية أن يبادر بالتوبة بحسب ما يمليه عليه قلبه ، ولقد فرع العلماء من قوله تعالى « ولا تقربا هذه الشجرة ، فأزلهما

فأخرجهما » حكما . هو أنه إذا كان النهى موجها إلى شخصين لا تترتب العقوبة إلا باشتراكهما فى ارتكاب المنهى عنه ، وترتب على هذا خلاف بين العلماء فيما إذا قال رجل لزوجتيه إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان فدخلت إحداهما فقط ، فقال فريق بعـــدم وقوع الطلاق مطلقا إلا بدخولهما ، وقال آخرون بوقوع الطلاق لأن بعض الحنث حنث ، وقال فريق ثالث تطلق التى دخلت وحدها لأن دخول كل واحدة منهما شرط فى طلاقها ، والصحيح أن العبرة بالنية فإن لم تكن هناك نية فالرأى الأخير أصوب والثانى أبعد عن الصواب لأن بعض الشرط لا يكون شرطا إجماعا .

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) .

اللفظ :

(اهبطوا) انزلوا (يأتينكم) يجيئكم (هدى) بيان أو دلالة إلى الرشاد (خوف) فزع (يحزنون) يتوجعون من الهم (كفروا) جحدوا (كذبوا بآياتنا) نسبوها إلى الكذب (أصحاب النار) ملازموها (خالدون) مقيمون دائما .

المعنى :

بعد أن تلقى آدم بشارة التوبة من ربه وقف طامعا أن يكون من مقتضى التوبة العفو والتجاوز عن الهبوط إلى الأرض ولكنه بالنظر لأن أمر الهبوط كان مشتركا بين آدم وإبليس الذى لم يستغفر ولم يندم كرر الله الأمر حيث قال (قلنا اهبطوا منها جميعا) إلى الأرض كما سبقت إرادتى بذلك من قبل ، على أن تظلوا فى دور اختبار دائم وإنى سأصدر عليكم أوامر أخرى كلها لمصلحتكم (فإما يأتينكم منى هدى) عن طريق رسول من قِبلى أو كتاب منزل منى (فمن تبع هداى) وأطاع أوامرى واجتنب ما أنهاه عنه (فلا خوف عليهم) من حلول نقمة الله بهم ما داموا سائرين على طريق الهدى . (ولا هم يحزنون) على ما فاتهم من سكنى الجنان لأنهم واثقون من عودتهم إليها بقدرة الله الذى عفا عنهم ولم يقصد بهم سوءا فى هذه الأرض ، وما دامت إرادة الله قد قضت بالهبوط إلى الأرض مؤقتا فلا بد وأن يكون لهم من ورائه الخير الجزيل (والذين كفروا) بنا (وكذبوا بآيتنا) الموضحة لسبيل الهدى والتى أشير إليها من قبل (أولئك أصحاب النار) التى أعدت خصيصا لهم و (هم فيها خالدون) إلى مالا نهاية .

المغزى :

تنبهنا هذه الآيات إلى ما يأتى :—

١ — أننا نجتاز فى هذه الحياة الدنيا دور اختبار مماثل للموقف الذى وقفه آدم عليه السلام من قبل اتجاه إبليس ، فمن أطاع الله واتبع أوامره وأناب إليه سبحانه وتعالى عن المعاصى نجا ،

ومن اتبع إبليس وعصى ربه ولم يرجع اليه بالتوبة والندامة استحق عذابه وعقوبته .

٢ — أن من سنة الله فى الخلق أن الخير يخص والشر يعم ، وأن العفو لا يقتضى التجاوز عن جميع العقوبات .

الحكم :

وجوب اليقظة والحذر من غواية إبليس وما يزينه الشيطان من السيئات .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

اللفظ :

(إسرائيل) لقب نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام (اذكروا) احفظوا (نعمتى) الصنيعة وما يؤتيه الله من رزق

وغيره (أنعمت) أوصلت (أوفوا بعهدى) حافظوا عليه (ارهبون) خافون (آمنوا) ثقوا (أنزلت) أوحيت به إلى رسولى (مصدقا) مؤيدا (كافر) جاحد (تشتروا) تملكوا (آياتى) الآيات : الدلائل التى يؤيد الله بها أنبياءه (ثمنا) ما كان عوض البيع (اتقوا) خافوا واحذروا (تلبسوا) تخلطوا حتى يصير متشابها (تكتموا) تخفوا (تعلمون) تعرفون (أقيموا) أديموا (آتوا) أعطوا (اركعوا) طأطئوا رءوسكم بالحركات المعلومة فى الصلاة .

المعنى :

بعد أن حاج الله الكافرين وذكرهم بأنعمه على الإنسان منذ نشأته، أخذ يخاطب الأمم والشعوب المنتشرة فى البلاد التى أرسل إليها الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم وبدأ فى هذه الآيات بذكر بنى إسرائيل لأن كثيرا منهم كان يسكن يثرب ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين وطأة وأكثرهم عنادا فقال (يابنى إسرائيل) من قومه (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وهى أجلّ من أن تحصى (وأوفوا بعهدى) الذى عاهدتكم عليه من إخلاص العبادة لى وعدم الإشراك بى والإيمان برسلى والخضوع لأحكامى وشرائعى من اتباع الأوامر واجتناب النواهى (أوف بعهدكم) الذى قطعته لكم من قولى « لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » (وإياى فارهبون) لا تظنوا أن الأمر يقف عند هذا الحد بل إنكم إذا لم تفوا بعهدى فاحذروا غضبى ونقمتى فانى شديد العقاب (وآمنوا بما أنزلت) على رسولى محمد (مصدقا) لما معكم من التوراة والإنجيل وذلك الكتاب

المنزل عليه هو القرءان ، الذى يقرر فى تعاليمه أن موسى وعيسى أنبياء وأن التوراة والإنجيل حق (ولا تكونوا أول كافر به) جاحد بالقرءان مع العلم بأن كفر قريش كان مع الجهل لا مع المعرفة (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) لا تفرطوا فيما جاءكم بآياتى من الهدى مقابل بعض مصالح دنيوية ساقطة ترجونها من المكذبين بهذه الآيات ، فما هم فى الواقع بمالكين للعطاء ، بل إننى أنا الله وحدى المعطى الرزاق فآمنوا بى خيرا لكم (وإياى فاتقون) لأغدق عليكم الرزق وأنيلكم فوق ما كنتم تنتظرون (ولا تلبسوا الحق بالباطل) بتشويه الحقائق وتشكيك العقائد ووضع الشبهات التى تضللون بها غيركم لاتباعكم (ولا تكتموا الحق) بمنع الناس من الوصول إليه أو بإخفائه أو بالطعن فيه (وأنتم تعلمون) مايترتب على عملكم هذا من المفاسد والإضرار بالناس (وأقيموا الصلاة) فى أوقاتها (وآتوا الزكاة) لمستحقيها (واركعوا) اخضعوا لله (مع الراكعين) الخاضعين لأوامره المجتمعين لأداء واجباته .

المغزى :

تنبه هذه الآيات إلى ما يأتى : —

(١) من ذكر نعمة الله عليه حفظ الله عليه نعمه .

(٢) من وفى بعهد الله وفى الله بعهده .

(٣) من نكث عهد الله فإنما ينكث على نفسه .

(٤) لا يتحقق معنى الإيمان إلا فيمن توفرت فيه هذه الشروط :

١ — التصديق بالكتب المنزلة جميعها ؛ والقرءان بصورة

خاصة باعتباره هو آخر كتاب جاء مصدقا ومشتملا على ما قبله .

ب — الحرص على التمسك بالدين وعدم التساهل فيه وجعله وسيلة للارتزاق .

حـ — الصدوع بالحق وعدم المواربة فيه أو كتمانه .

ء — المحافظة على الصلاة فى أوقاتها وأداء الزكاة لمستحقيها .

هـ — ملازمة الجماعة وعدم الخروج عن إجماع المسلمين .

الحكم :

حرمة نقض العهد وحرمة التضليل ووجوب الجهر بالحق وحرمة كتمانه ووجوب أداء الصلاة والزكاة والحرص على الجماعة .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتٰبَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلٰقُوا رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رٰجِعُونَ (٤٦) .

اللفظ :

(تأمرون) تكلفون (البر) الإحسان والطاعة (تنسون) لا تتذكرون (أنفسكم) ذاتكم (تتلون) تقرءون (الكتاب) ما نزل

من عند الله (تعقلون) تدركون الخطأ من الصواب (استعينوا) اطلبوا المساعدة والعون (الصبر) احتمال المكروه بنوع من الرضا والتسليم (الصلاة) الفريضة المعلومة (كبيرة) ثقيلة وشديدة الوقع (الخاشعين) الخاضعين (يظنون) يوقنون مع احتمال النقيض (ملاقوا ربهم) يتوقعون لقاءه (راجعون) عائدون .

المعنى :

بعد أن ذكر الله بنى إسرائيل بنعمه عليهم وبين لهم ما يجب أن يكونوا عليه ونهاهم عما يجب أن يتنزهوا عنه وأمرهم بالصلاة والزكاة والتمسك بالجماعة ، أخذ يؤنبهم على ما فى نفوسهم من خلق ذميم هو أنهم كانوا قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرون مشركى العرب أن رسولا سيظهر منهم يدعو إلى الحق وكانوا يرغبونهم فى اتباعه ، فلما بعث الله محمدا كفروا به فبكتهم الله على ذلك بقوله (أتأمرون الناس) من قبل بعثة النبى (بالبر) وهو اتباع ذلك النبى المنتظر (وتنسون أنفسكم) فلا تتبعونه عندما ظهر (وأنتم تتلون الكتاب) الذى أنزل عليكم مع موسى وعيسى من التوراة والإنجيل وكلها تخبركم ببعثة هذا النبى الأمىّ (أفلا تعقلون) لأن العاقل إذا اقتنع بأمر فيه مصلحة فهو أحق باتباعه فإن لم يتبعه فليس بعاقل ويكون كمن يعرف طريقا ممهدا مضيئا فيتركه ويمشى فى طريق وعر مظلم فإذا ما صادفه آخر على مثل حاله دله إلى الطريق السالك المضىء ونصح له أن لا يمشى معه وظل هو يتخبط على غير هدى (واستعينوا) فى معالجة أنفسكم من هذا المرض العقلى ، أو النقص الخلقى (بالصبر) على مقاومة النفس الأمارة بعدم الرضوخ للحق

أو إلى شريعة غير شريعتكم الأولى (والصلاة) التى هى عماد شريعة هذا النبى الكريم إذ هى كفيلة بتهذيب النفس وإصلاحها وإخضاعها لباريها (وإنها لكبيرة) فى ظاهرها على المتكبرين الأنانيين بالنظر لما فيها من تمام الذلة والخضوع بالسجود بين يدى الله (إلا على الخاشعين) المقرين لله بتوحيد الربوبية الموصوفين بأنهم (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) يتوقعون الموت فى كل لحظة لأنهم يعرفون أنه لا مفر منه وأن مردهم إلى الله ، ومن كان كذلك لا بدّ وأن يخشع ويتوب فيسارع إلى الصلوات فى أوقاتها ابتغاء رضوان الله باعتباره هو الخالق لهم (وأنهم إليه راجعون) فى يوم القيامة إلى مثل الحياة التى كان عليها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، ويودون أن يكونوا على ما كان عليه آدم من التوبة ورجاء الرحمة والغفران .

المغزى :

تنبه هذه الآيات إلى أنه لا ينبغى لمن يعظ الناس أن يكون على حال تغاير ما يعظ به لأن هذا دليل على مرض فى النفس أو نقص فى العقل أو ضعف فى الخلق علاجه مقاومة النفس وترويضها بالإقدام على الطاعة وذكر الموت والتفكر فى اليوم الآخر .

الحكم :

وجوب الاهتداء بهدى القرءان وزجر النفس عن أهوائها .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) .

اللفظ :

(فضلتكم) صيرتكم أكثر فضلا من سواكم (العالمين) الخلق كلهم (اتقوا) خافوا وحاذروا (تجزى) تكافىء (نفس) ذات الإنسان (يقبل) يصدق (يؤخذ) يتناول (عدل) النظير ، المماثل ، الفداء (ينصرون) يعاونون على دفع ضرر أو رد عدو .

المعنى :

بعد أن ذكر الله بنى إسرائيل بنعمه وألزمهم بأوامره أخذ يذكرهم فى هذه الآيات بالنعم التى لحقت بآبائهم من قبل والتى لولاها لما ظلوا على قيد الحياة حتى اليوم ، إذ النعمة على الآباء نعمة على الأبناء وقد بدأ سبحانه وتعالى بذكر موضع الكرامة فيهم ، وهو تفضيلهم على الناس ليعملوا على الاحتفاظ بتلك الأفضلية ويترفعوا عن كل ما يجلب لهم الذلة والهوان حيث قال (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) والتى سأسرد لكم طرفا منها فيما بعد (و) أهمها (أنى فضلتكم على

العالمين) فقد جعلت منكم عدة أنبياء من دون سائر الأمم ، فمن الواجب عليكم أن تقدروا لى هذة المنة وتبالغوا فى إرضائى (واتقوا) أى وإن لم تكن طاعتكم لى لسابق نعمتى عليكم فلتكن للخوف من عذابى المقبل، فإن هناك (يوما) لا بد منه (لا تجزى) فيه (نفس عن نفس شيئا) فكل واحد مشغول بنفسه ولا قدرة ولا سبيل له إلى معاونة غيره (ولا يقبل منها شفاعة) لأنه لا سلطان لأحد فى ذلك اليوم إلا لله وحده والكل يشعر بقصوره عن أداء حق مولاه (ولا يؤخذ منها عدل) أى ليس لديه ما يفتدى به من العذاب يومئذ والجميع فقراء معدمون وليس هناك مادة من درهم أو دينار (ولاهم ينصرون) لأنه لا ناصر ولا قادر سواه سبحانه وتعالى .

المغزى :

تدل هاتان الآيتان على أن الله يحاسب العباد فى الآخرة على النعم التى أغدقها عليهم فى الدنيا فعلى العاقل أن يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب فيذكر نعم الله عليه ليوفيها حقها من الشكر وشكر النعم هو الاعتراف بها لمسديها بالبذل والإحسان .

الحكم :

وجوب تذكر النعم ووجوب التفكر فيما بعد الموت .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

اللفظ :

(نجينا) خلصنا (فرعون) من ولى مصر فى العهد الخالى (يسومونكم) يكلفونكم، التكليف : التعذيب (سوء) شر (العذاب) كل ما يشق على الإنسان (يذبحون) يبالغون فى الذبح (أبناءكم) الذكور من النسل (يستحيون) يستبقونهم من الذبح (بلاء) اختبار يكون بالخير والشر (عظيم) كبير .

المعنى :

لقد ثنى الله بذكر نعمة أخرى له على بنى إسرائيل وهى إنقاذ آبائهم من عذاب آل فرعون ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معا حيث قال (و) اذكروا (إذ نجيناكم من آل فرعون) الذين كانوا (يسومونكم سوء العذاب) مما يسوءكم ويذلكم، يوم كانوا (يذبحون أبناءكم) لقطع نسلكم وإبادتكم (ويستحيون نساءكم) الضعفاء للتنكيل بهن وامتهانهن ولولا هذا لانقطعت أصولكم وباد نسلكم وذهب ريحكم (وفى ذلكم) أى قتل الأبناء واستبقاء النساء (بلاء) واختبار (من ربكم عظيم) ليعلم مبلغ تقديركم لهذه المنة، وشكركم على النعمة بعد الخلاص من هذا الموقف الرهيب .

المعنى :

تنبه هذه الآية إلى أن ما يصيب الإنسان من المصائب والنكبات أو الخلاص منها ما هو فى الواقع إلا اختبار من الله للوقوف على مقدار صبره على بلائه ومبلغ تقديره لنعمائه .

الحكم :

وجوب الصبر على البلاء ، وندب ترقب الفرج عند الشدة .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) .

اللفظ :

(فرقنا) وقرىء (فرقنا) بتشديد الراء فصلنا (أنجيناكم) وقرىء (أنجيتكم) أنقذتكم (أغرقنا) بالغنا فى إنزالهم فى الماء (تنظرون) تبصرون (واعدنا) وقرىء (وعدنا) بدون ألف أملنا (اتخذتم) صيرتم وجعلتم (العجل) ولد البقر (ظالم) واضع الشىء فى غير محله (عفا) صفح ، وترك العقوبة (تشكرون) تثنون (آتينا) أعطينا (الكتاب)

التوراة (الفرقان) البرهان ، وكل مافرق بين الحق والباطل (تهتدون) تصلون إلى طريق الحق والاستقامة .

المعنى :

لقد والى الله تعداد نعمه على بنى إسرائيل فقال (و) اذكروا (إذ فرقنا بكم) بسببكم (البحر) حتى صار لكم طريقا واضحا وسبيلا سالكا تسيرون فيه وهذه معجزة خاصة لنبيكم ومنة عظمى من الله عليكم فى الساعة التى أدركتكم فيها آل فرعون ولم يكن أمامكم غير البحر المنذر بالغرق (فأنجيناكم) من هلاك مؤكد بإدراكهم لكم أو غرقكم فى البحر وزدنا فى المنة عليكم إذ نكلنا بأعدائكم (وأغرقنا آل فرعون) الذين كانوا يهددون مؤخرتكم بأن أعدنا الطريق التى فرقناها بسببكم إلى ما كانت عليه فصارت بحرا غرق فيه آل فرعون وبذلك قضينا على أعدائكم وحسمنا مادة الخوف من قلوبكم حيث أيقنتم بأنه لا سبيل إلى تغلبهم عليكم بعد اليوم ، كل هذا قد وقع (وأنتم تنظرون) بأعينكم وتلمسون نعم الله عليكم حيث أجرى خوارق العادات فى سبيل نجاتكم مما لايترك محلا للشك والارتياب فى قدرة الخالق وصدق موسى فى الرسالة ، وعلى الرغم من هذا فإنكم لم تؤمنوا بالله حق الإيمان ولم تصدقوا موسى فى أقواله فأمهلناكم ووالينا عليكم المتن والإمدادات كما يتجلى ذلك من الموقف التالى (و) ذلك (إذ واعدنا موسى) أن يأتى إلى الطور ويظل به (أربعين ليلة) لننزل عليه كتابا لكم تتبعونه فلم تنتظروا عودته إليكم بل قمتم إلى حليكم فحرقتموها (ثم اتخذتم) منها (العجل) ليكون (من بعده) إلها تعبدونه (وأنتم ظالمون) بعبادتكم للعجل بعد ماثبتت لكم ألوهية ربكم الذى نجاكم من الغرق ومن آل فرعون (ثم عفونا عنكم

من بعد ذلك) العناد والكفر بالله وعبادة غيره (لعلكم تشكرون) الله على منة العفو التى هى من أجل النعم المحسوبة عليكم . والشكر على العفو عنوان على الاعتراف بالذنب وإذعان بالحاجة إلى الغفران (و) اذكروا (إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) بعد ذلك هاديا لكم إلى الصراط السوى (لعلكم تهتدون) بالتوراة إلى ما يرضى الله ، وبالفرقان من المعجزات إلى معرفة قدرة الله والإيمان به وتأييد نبيه .

المغزى :

تلقى هذه الآيات دروسا إرشادية تتلخص فيما يأتى :—

(١) أن من كان فى موقف حرج وهيأ الله له طريق الخلاص منه أو كان له أعداء فنصره الله عليهم فلا بد له من تقدير هذه النعمة لربه وشكرانه عليها .

(٢) أن التعجل فى اتباع كل ناعق من غير تدبر مما يؤدى إلى الهلاك .

(٣) أن خير الهدى ما جاء من عند الله، وخير الأدلة على عظمة الله ما يلمسه الإنسان بنفسه من آياته .

الحكم :

وجوب معرفة الله معرفة تامة تصون المرء من الوقوع فى الشبهات .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) .

اللفظ :

(ظلمتم أنفسكم) جرتم عليها (توبوا) ارجعوا عن معصيتكم (بارئكم) من أبدع خلقكم (اقتلوا) أميتوا (أنفسكم) النفس القوة المهيمنة فى الإنسان (تاب عليكم) غفر لكم (تواب) من يقبل التوبة ويهب الغفران (الرحيم) الثابت له صفة الرحمة (نؤمن لك) نثق بنبوتك (نرى) ننظر بالعين (جهرة) علانية (أخذتكم) منعتكم (الصاعقة) سهام نارية تسقط من السماء فى رعد شديد (تنظرون) تنتظرون (بعثناكم) أيقظناكم (موت) مفارقة الروح الجسد أو وقوف حركة القلب (ظللنا) جعلنا ظلا (الغمام) السحاب (أنزلناه) جعلناه نازلا (المن) مادة مائية تنعقد على بعض الشجر عسلا وتجف جفاف الصمغ (السلوى) طائر يعرف بالسمان (طيبات) خلاف الخبيث (رزقناكم) أوصلنا لكم الرزق (ظلمونا) الظلم الجور وانتقاص الحق .

المعنى :

بعد أن ذكر الله بنى إسرائيل بنعمه عليهم أخذ يذكرهم أيضا بما كان

من معاتبة نبيهم لهم على ما بدر منهم وما كان من إجابتهم على ذلك حيث قال (و) اذكروا (إذ قال موسى لقومه) وهم آباؤكم (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) إلها عبدتموه من دون الله فقالوا وماذا نفعل وقد فرط منا ما فرط قال (فتوبوا إلى بارئكم) قالوا وكيف تكون التوبة؟ قال (فاقتلوا أنفسكم) أى أكسروا حدتها وأسلموها إلىّ أنفذ فيها أمر ربكم (ذلكم) الاستسلام وعدم المعارضة (خير لكم عند بارئكم) فلما خضعتم واستسلمتم لأمر ربكم رضى عنكم (فتاب عليكم) مما اقترفتم من الذنوب (إنه هو التواب) الذى يقبل التوبة من عباده (الرحيم) الذى لا يقصد التنكيل بكم وسلبكم الحياة وإنما يريد لكم الهداية والصلاح (و) لكنه سرعان ما تبدل حالكم ورجعتم إلى جحودكم وعنادكم (إذ قلتم) لنبيكم (يا موسى لن نؤمن) برسالتك ونذعن (لك) بقلوبنا (حتى نرى الله جهرة) كما نراك عيانا أمامنا (فأخذتكم الصاعقة) أثر قولكم هذا (وأنتم تنظرون) فى الساعة التى كنتم فيها تفكرون فى إمكان إجابة طلبكم وحصول هـــذه الرؤية لكم (ثم بعثناكم) بطريقة خارقة للعادة (من بعد موتكم) خوفا من تأثير الصاعقة (لعلكم) تتوبون إلى الله من أمثال هذه المعاندات و (تشكرون) بعثه لكم من جديد بعد أن أصبحتم فى عداد الموتى وقد والينا عليكم أيضا من النعم الجسام مالا تستطيعون نكرانه (وظللنا عليكم الغمام) فى أوقات الحرارة (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) بدلا من النبات والبقول فى أيام القحط وقلنا لكم (كلوا من طيبات ما رزقناكم) واشكروا هذه النعم وقدروها حق

قدرها . ثم خاطب الله نبيه بعد هذا بقوله (وما ظلمونا) أولئك القوم بكفرهم وجحودهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بتعريضها للرزايا واستحقاقها للعذاب الأليم .

المغزى :

تنبه هذه الآيات إلى قواعد عامة جعلها الله سنة من سننه فى خلقه وهى تتلخص فيما يأتى : —

(١) التوبة تكفر كافة الذنوب وتقبل بقهر النفس وإخضاعها لله ورجاء الغفران والرحمة منه .

(٢) رؤية الله فى الحياة الدنيا غير ممكنة والمطالبة بها تعنت غير مقبول يؤدى إلى أسوإ النقم .

(٣) كفر النعم وعدم الاعتداد بها ظلم يؤدى إلى سلبها .

الحكم :

يجب على المؤمن الاقلاع عن المعاصى ، والتوبة إلى الله ، والتأدب فى الطلب من الله وشكره على ما يجريه عليه سبحانه من النعم .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) .

اللفظ :

(القرية) الضيعة (شئتم) أردتم (رغدا) طيبا (الباب) المدخل (سجدا) خاضعين (حطة) اسم من استحط وزره بمعنى سأله أن يحطه عنه (نغفر) نعف وقرئ يغفر بالياء وتغفر بالتاء (خطاياكم) ذنوبكم (نزيد) ننمى (المحسن) مسدى الإحسان (بدل) غير (الذين ظلموا) الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها (قولا) كلاما (رجزا) عذابا وقرئ (رجزا) بضم الراء (يفسقون) يخرجون عن طريق الحق والصلاح

المعنى :

وكان من نعم الله التى عددها على بنى إسرائيل أن ذكرهم بما قد تفضل به عليهم من قبل تمكينهم من الدخول إلى الأرض المقدسة التى كانوا يحبونها ـ ولعلها بيت المقدس ـ منتصرين فائزين ، بعد نكولهم عن الجهاد فى سبيلها ، فقدر عليهم البقاء فى التيه بضع سنوات عقوبة لهم ثم عفا عنهم ، ويسر لهم سبيل الوصول إليها ، وأمرهم بدخولها شاكرين خاضعين مستغفرين حيث قال (و) اذكروا يا بنى إسرائيل (إذ قلنا) لآبائكم (ادخلوا هذه القرية) التى كنتم تحنون إليها (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) ولكن بشرط أن تعترفوا بأنفسكم بأنه لا فضل لكم فى هذا الدخول بل هو من محض كرم الله وإنعامه عليكم ، فإذا شارفتم على المدينة فاحمدوه سبحانه على ذلك (وادخلوا الباب سجدا) خاضعين خاشعين من غير زهو ولا خيلاء (وقولوا) كلمة سهلة موجزة وهى (حطة) تجاوز عما فرط منا من التقاعس عن الجهاد الذى فرضته علينا فى سبيل دخولنا فى الأرض المقدسة (نغفر لكم خطاياكم) وكل ما صدر

منكم (وسنزيد) فى ثواب (المحسنين) الذين لم يشتركوا فى التراخى والتقاعد عن الجهاد ساعة الأمر وإنما أخذوا بجرمكم وقاسوا ما قاسوه بسببكم (فبدل الذين ظلموا) وهم الذين نكلوا من قبل وقالوا - إن فيها قوما جبارين - (قولا غير الذى قيل لهم) وهو « حطة » استخفافا بها واستهتارا ولم يراعوا نص ما أمروا به بل جاءوا بكلام حسبوه أبلغ من كلام الله (فأنزلنا على الذين ظلموا) ممن ذكرنا (رجزا من السماء) جزاء لهم (بما كانوا يفسقون) فعاجلناهم بالعذاب نتيجة فسقهم وعصيانهم المتكرر وتبديلهم للنص الذى أمروا به من عند الله على بساطته .

المغزى :

تعلمنا هاتان الآيتان أنه لا اجتهاد مع النص ، وليس من الطاعة التصرف فيه بتغيير وتبديل فقد كان استخفاف بنى إسرائيل بقول (حطة) وتبديلهم لها سببا فى حلول الرجز فيهم .

الحكم :

لقد استنتج العلماء من قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) أن تبديل الأقوال المنصوص عليها لا يجوز ؛ والتحقيق أن الأقوال المنصوص عليها فى الشريعة لا يخلو إما أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها، فإن حصل التعبد بلفظها فلا يجوز تبديلها، وإن حصل التعبد بمعناها جاز تبديلها بما يؤدى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه ومع كل فلا يجوز التبديل إلا بالاجتهاد .

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) .

اللفظ :

(استسقى) طلب السقيا من الله (انفجرت) تفتحت فيه منافذ يجرى منها الماء (عشرة) وقرئ بكسر الشين وفتحها (عينا) ينبوع الماء (مشربهم) موضع شربهم (تعثوا) تبالغوا فى الفساد (مفسدين) مخربين ضد المصلحين .

المعنى :

وكان من نعم الله العظمى التى عددها على بنى إسرائيل أن ذكرهم بما كانوا عليه من ظمأ ونصب، وما أمدهم الله به فى تلك الأثناء من السقيا وتنظيمها بمعجزات باهرات حيث قال (و) اذكروا يا بنى إسرائيل (إذ استسقى موسى) فى ساعة الجدب والظمأ (لقومه) أبائكم (فقلنا) له (اضرب بعصاك) التى تحولت من قبل حية تسعى أمام فرعون وقومه (الحجر) الذى أمامك فى هذا المكان المجدب (فانفجرت منه) فما كاد موسى ينفذ ما أمره به مولاه من ضرب الحجر بالعصا حتى انفجرت منه (اثنتا عشرة عينا) بعدد الأسباط الاثنى عشر لئلا يتنازعوا عليها ويتقاتلوا دونها فاقبلوا عليها يسقون (قد علم كل أناس مشربهم) وقلنا لهم (كلوا) من الزراعة التى كادت تتلف ظمأ (واشربوا) من هذه العيون المتدفقة فانها (من رزق الله) الذى تفضل به عليكم فلا تكفروا

بهذه النعم ولا تقابلوها بالجحود (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فهذا يعد منكم كفرانا للنعم التى توالت عليكم .

المغزى :

تنبه هذه الآية إلى أن احتباس الغيث عن الناس إنما هو بقدرة الله وهو وحده الذى يستطيع أن يرويهم إذا شاء إما عن طريق السماء بالغيث أو بما ينبع من الأرض ، بل إنه سبحانه وتعالى إذا أراد فجر المياه من الحجر الصلد وأعطى الناس كفايتهم .

الحكم :

يسن شرعا طلب السقيا من الله عند الجدب واحتباس الغيث لأن ذلك وسيلة إغداق النعم على العباد .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) .

اللفظ :

(نصبر) نثبت (طعام) ما يؤكل (ادع) اطلب (يخرج) يظهر (بقل) ماينبت من البذر ولاساق له كالكرفس والنعناع (قثائها) بكسر القاف وقرئ بضمها : نوع من النبات يشبه الخيار تسميه العامة «القتة» (فومها) يطلق على الثوم وسائر الحبوب ، وقرأ ابن عباس « وثومها » وهـــذا المعنى أقرب لذكر البصل بعده (عدسها) هو حب معروف (بصلها) النبات المعروف يستعمل فى كثير من الأطعمة (أتستبدلون) تتخذون منه بدلا ، وفى قراءة (تبدلون) بإسكان الباء (أدنى) اسم تفضيل من الدنىء وقرىء (أدنأ) بالهمزة من الدناءة (خير) اسم تفضيل مخفف أخير أى أفضل الأمرين (اهبطوا) انزلوا (مصرا) مدينة (سألتم) طلبتم (ضربت) قدرت (الذلة) الهوان ضد العزة (المسكنة) الفقر والضعف (باءوا) رجعوا (بغضب) ببغض (يكفرون) يجحدون (آيات) علامات وأدلة (يقتلون) يميتون (النبيين) المخبرين عن الغيب بوحى أو إلهام من الله (الحق) العدل (عصوا) خالفوا (يعتدون) يظلمون ، يتجاوزون حقوق الناس .

المعنى :

وكان من نعم الله التى عددها على بنى إسرائيل أن ذكرهم بما كان منهم من كفرانهم للنعم وسآمتهم من الرزق الميسر لهم واستجابته لطلبهم حيث قال (و) اذكروا يا بنى إسرائيل (إذ قلتم) يوم أن أنزل عليكم المنّ والسلوى (ياموسى لن نصبر على) مانحن عليه من (طعام واحد) ميسور هو المن والسلوى (فادع لنا ربك) أن (يخرج لنا) بدلا من

ذلك (مما تنبت الأرض) عن طريق الحرث والزرع (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) إلى غير ذلك مما ألفناه وتعودنا زراعته فى مصر يوم كنا فيها (قال) ويلكم من جاحدين للإحسان غير مقدرين للنعم (أتستبدلون الذى هو أدنى) من نبات الأرض الذى لا يحصل إلا بعد جهد ونصب (بالذى هو خير) وهو المن والسلوى اللذين أنعم الله بهما عليكم من غير عناء أو مشقة : أولهما من محصول السماء ، والثانى من ذى الروح وهو أفضل من الجماد، وإذا أبيتم إلا الاصرار على طلبكم فاخرجوا من الأرض المقدسة و (اهبطوا مصرا) تلك البلد التى ألفتموها من قبل (فإن لكم) فيها (ما سألتم) من البقول وغيرها (وضربت عليهم الذلة) كتب عليهم الذل لأن الله أراد عزهم بإسكانهم الأرض المقدسة فأبوا إلا الحنو إلى المكان الذى كانوا أذلاء فيه (والمسكنة) كتب عليهم أن يظهروا بمظهر الفقر والمتربة لأن الله قد أغدق عليهم نعمه من غير كدّ فأبوا إلا أن يحصلوا عليه بالحرث والزرع والتعب والنصب (وباءوا بغضب من الله) لسبب آخر غير هذا (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) التى تتلى عليهم ومعجزاته التى تتجلى أمام أنظارهم (ويقتلون النبيين) الذين يدعونهم إلى الهداية والرجوع عن العناد والضلال (بغير الحق) مع علمهم فى أنفسهم بأنهم أنبياء الله حقا ، وقد استحقوا (ذلك) أى ما أصابهم من ذلة ومسكنة (بما عصوا) ربهم ، والعصيان من شأنه إزالة النعم ، واستحقوا حلول الغضب بهم لأنهم جحدوا نعمة الله عليهم وكفروا بآياته (وكانوا يعتدون) على عباد الله وفى مقدمتهم أنبياؤه .

المغزى :

تنبه هذه الآية إلى القواعد الاجتماعية الآتية :

(١) كفران النعم يؤدى إلى الفقر والمسكنة .

(٢) محاربة الحق تؤدى إلى المذلة والهوان .

(٣) الإمعان فى المعاصى ومبارزة الله بالعداء يؤدى إلى حلول النقم وكثرة المحن .

الحكم :

يجب على المرء أن لا يكفر بنعم الله وأن لا يتبرم ويعلن السخط مما يقضى به الله .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) .

اللفظ :

(آمنوا) اطمأنوا ووثقوا والمراد بهم المسلمون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (هادوا) تابوا ورجعوا إلى الله والمراد بهم بنو إسرائيل الذين رجعوا عن عبادة العجل ، وقرئ (هادوا) بفتح الدال وإسكان الواو (النصارى) أنصار المسيح (الصابئين) الخارجين من دين لآخر وقرئ «الصابين» من غير همزة وقرئ بإبدال الهمزة ياء أى بياءين (اليوم الآخر) يوم القيامة (عمل) صنع (صالحا) عملا مفيدا غير فاسد (أجر) الثواب (خوف) فزع (يحزنون) يتوجعون من انفعال نفسانى .

المعنى :

بعد أن عدد الله نعمه على بنى إسرائيل وذكرهم بما كان منهم من السيئات وما حاق بهم من العذاب وما ضرب عليهم من المذلة ، أراد سبحانه وتعالى أن يفهمهم بأنه فضلا عن كل ما حدث فإنه سوف لا يؤاخذ إلا المجرم بإجرامه والمقترف بذنبه ، فمن كان منهم مؤمنا بالله ورسله واليوم الآخر عاملا على إرضائه بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه فلا حرج عليه ولذلك قال (إن الذين آمنوا) وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (والذين هادوا) من أتباع موسى فى عهده (والنصارى) من أتباع عيسى فى عهده (والصابئين) ممن لم يكن له دين خاص بل منهم من يعبد الملائكة أو النجوم أو سواهما (من آمن) وثق حقيقة بقلبه اليوم (بالله) بأنه واحد وأخلص له العبادة ولم يشرك به أحدا من خلقه (واليوم الآخر) أى وآمن بصحة ما أخبر به الرسل عنه (وعمل) عملا (صالحا) خالصا من كل الشوائب والرياء موافقا لما أشار به الرسل يبتغى به وجه الله (فلهم أجرهم) على ذلك ، لأن الإيمان بالله موجب لحبه والخوف منه ودعائه فى السراء والضراء ، ولأن الإيمان باليوم الآخر دليل على الإيمان بالرسل الذين جاءوا بأخباره وختامهم النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مايوجب اتباعهم والسير على منهاجهم والتمسك بحقيقة أديانهم ، وهذا هو العمل الصالح الذى يستجلب رضاء الله فلا غرو إذا ما وجد فاعلوه أجرهم (عند ربهم) فى يوم الحساب (ولا خوف عليهم) فى الدنيا من عذاب الله ونقمه ، ما داموا على هذه الحالة بناء على وعد الله السابق لهم (ولا هم يحزنون) فى الآخرة على شىء حرموا منه أو لم يجدوه .

المغزى :

تدل هذه الآية على أنه ليس مجرد الانتماء لدين من الأديان يكون موجبا لرضاء الله ، اللهم إلا أن يؤمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ويصلحوا أعمالهم .

الحكم :

لا يجوز الحكم على أحد بعينه بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار، فإن التخصيص موكول لأمر الله العليم بحقيقة مافى القلوب والمطلع على جميع الأعمال ومبلغ خلوصها لله ؛ وقد نص العلماء على أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٢) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) .

اللفظ :

(أخذنا) تناولنا (ميثاق) العهد (رفعنا) أعلينا (الطور) الجبل (آتينا) أعطينا (بقوة) بشدة (اذكروا) احفظوا فى أذهانكم (تتقون) تخافون الله (توليتم) أعرضتم وتركتم (فضل) الابتداء بالإحسان بلا علة (رحمة) رقة وعطف تقتضى المغفرة (الخاسرين) الضالين الهالكين .

المعنى :

بعد أن بين الله فى الآية السابقة لبنى إسرائيل أن الإيمان الكامل والعمل الصالح هما سبيل النجاة ، أراد أن يعبر لهم عن مبلغ حلمه وكرمه وفضله ورحمته. فذكرهم بأنه سبحانه وتعالى لم يكتف بمجرد إنذارهم والتلويح لهم بخوارق العادات مع ترك الخيار لهم فى قبول الهداية أو عدمها ، بل إنه أكرههم فعلا على الرضوخ لأوامره بقصد هدايتهم حيث قال (و) اذكروا (إذ أخذنا ميثاقكم) بوجوب الانقياد والطاعة وما اكتفينا بهذا بإقامة الحجة عليكم فحسب بل تفضلنا (ورفعنا فوقكم الطور) تهديدا لكم شأن السيد الذى يحمل على عبده العصا للطاعة والانقياد وقلنا لكم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) وإلا ألقيناه عليكم وأهلكناكم أجمعين (واذكروا ما فيه) من أوامر وتعاليم وآيات بينات لتفقهوها جيدا فإنها كفيلة بإخضاع نفوسكم لله واتباع دينه الحق (لعلكم تتقون) الله منزل ذلك الكتاب الذى رضختم لقبوله ساعة التهديد ، إذ أن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريا بالتعود (ثم توليتم من بعد ذلك) عن الطاعة وتناسيتم الجبل الذى كاد أن ينقضّ عليكم فأشفقنا بكم وأبقينا عليكم ، وكان لنا أن نأتى بالجبل مرة أخرى ونوقعه عليكم فعلا وأنتم لا تشعرون (فلولا فضل الله عليكم) برفع الجبل فوقكم حتى تبتم (ورحمته) بإمهالكم عند ما عصيتم (لكنتم من الخاسرين) الذين سلبوا نعيم الدنيا وخلدوا فى نار جهنم فى الآخرة .

المغزى :

تدل هاتان الآيتان على ما يأتى :—

(١) الإكراه على اتباع الدين كان مشروعا فى بنى إسرائيل .

(٢) أن مجرد الإيمان بالكتاب لا يكفى بل لابد من العمل بمقتضاه .
(٣) أن سلاح القوة والإرهاب وإن عظم لا يضمن تمام الانقياد .

الحكم :

وجوب التفكر والتدبر، والإقرار بنعم الله التى أسداها لبنى الإنسان، والتوبة إليه والعمل بما يرضاه .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) .

اللفظ :

(علمتم) عرفتم وتيقنتم (اعتدوا) ظلموا (السبت) يوم فى الأسبوع بين الجمعة والأحد (قلنا) قضينا (كونوا) صيروا (قردة) الحيوان المعروف عند العامة، «بالسعدان» (خاسئين) مبعدين مطرودين (فجعلناها) صيرناها (نكالا) عظة وعبرة للغير (خلفها) وراءها (موعظة) تذكرة تحمل على الإصلاح (المتقين) مأخوذ من الوقاية، وهى حفظ الشىء مما يؤذيه .

المعنى :

بعد أن تفضل الله على بنى إسرائيل ببيان مبلغ حلمه وفضله ورحمته نبههم إلى أن ما حاق بهم من الأحداث وما شهدوه من العبر ما هو إلا نتيجة تلبسهم بأنواع خاصة من المعاصى ليأخذوا لهم من ذلك درسا

يرشدهم إلى أن السر فيما يجدونه فى أنفسهم من ذلة وهوان هو تعمدهم التصنع والتدليس على الله حيث قال (ولقد علمتم) بأمر (الذين اعتدوا منكم) باحتيالهم على الله وحبسهم الحيتان (فى) يوم (السبت) وقد نهوا عن الصيد فيه ثم تصيدوها بعد مضى ذلك اليوم (فقلنا لهم كونوا قردة) فكان جزاؤهم على ذلك الاحتيال أن كتبنا عليهم السقوط عن درجة الكمال الإنسانى إلى مستوى القردة الذين فقدوا صفات النبل والشهامة، وطبعوا على الشره فى المادة والانغماس فى الشهوات البهيمية فجردوا عن عواطفهم الإنسانية فأنزلهم منزلتهم، فقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال: ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا». وقوله تعالى أيضا «وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت» وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره والصحيح أن المسخ معنوى صورى اعتبارى (خاسئين) كونوا بحسب سنة الله فى الطبع والأخلاق كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس فلا يراهم كرام الناس أهلا لمجالستهم ومعاملتهم (فجعلناها) هذه العقوبة (نكالا) عبرة لكل من يتخذ الحيل وسيلة للافلات من أمر ربه ويحسب أن الاحتيال على الله قد يكون وسيلة للنجاة من عقابه (لما بين يديها وما خلفها) لمن وقعت الحادثة فى عهدهم ومن بعدهم إلى ما شاء الله (وموعظة للمتقين) الذين يحافظون على أنفسهم من الوقوع فيما يجلب عليها الذلة والهوان.

المغزى:

تنبه هاتان الآيتان إلى سنة من سنن الحياة الكونية هى:—

أن اتخاذ الحيل للخلاص من ربقة التكليف من شأنه أن يفقد

الإنسان كثيرا من خلاله الحميدة ويصيره عرضة للاحتقار ونبذ المجتمع له .

الحكم :

حرمة الاحتيال بجميع ألوانه وأنواعه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

اللفظ :

(يأمركم) يفرض عليكم (تذبحوا) تنحروا (بقرة) تطلق على

المهاة والآى والوعل والظباء الكبيرة المجوفة القرون (تتخذنا) تجعلنا (هزوا) سخرية، وقرئ « هزءا » بالهمزة وسكون الزاى، وقرئ بالهمزة مع الزاى مضمومة (أعوذ) أتحصن (الجاهلين) الحمق (ادع) اطلب (يبين) يوضح (فارض) طاعنة فى السن (بكر) فتية (عوان) نصف بين الصغيرة والمسنة (افعلوا) اعملوا (صفراء) لون الذهب أو الزعفران (فاقع) صاف أو شديد الصفرة (تسر) تعجب وتفرح (الناظرين) كل ذى بصر وبصيرة (البقر) وقرئ (الباقر) اسم لجماعة البقر (تشابه) التبس (مهتدون) عارفون (ذلول) سهل الانقياد وقرئ بفتح اللام (تثير) تهيج (تسقى) تستعمل للسقيا وقرئ بضم التاء (الحرث) الأرض التى تستنبت بالبذر والنوى ، (مسلمة) بريئة من العيب (شية) علامة (الأن) الوقت الذى أنت فيه وقرئ (آلآن) و (الآن) بحذف الهمزة(الحق) اليقين (كادوا) قاربوا الفعل ولم يفعلوا.

المعنى :

ثم نبه الله بنى إسرائيل إلى أن ما أصابهم فى الحياة من التشديد والحرج إنما هو نتيجة ترددهم فى تقبل الأحكام الإلهية رغبة فى التخلص من تنفيذ أوامر الله حيث قال (و) اذكروا (إذ قال موسى لقومه) يوما (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) من أى أنواع البقر لغاية يعلمها الله وليمتحن بذلك مبلغ طاعتهم ومبادرتهم إلى امتثال أوامره (قالوا) لموسى جوابا على ذلك (أتتخذنا هزوا) فأى ثمرة وأى معنى ترمى إليه من ذبح البقرة (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) الذين يتكلمون بغير علم أو الذين لا يعنون ماينطقون ، وإنما أنا أبلغكم أمر ربكم (قالوا) إن كان الأمر كما تقول وهذه إرادة الله (أدع لنا ربك يبين لنا ما هى) تلك البقرة صغيرة أم مسنة (قال إنه يقول إنها

بقرة لافارض ولا بكر، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) فبادروا بذلك فإن للتأخير آفات وفى التردد سيئات، فلم يقتنعوا بذلك أيضا، وأصروا على تقاعسهم عن تنفيذ أمر ربهم والتمسوا لذلك الأعذار وأخذوا يخترعون له الأسئلة حيث (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) لأننا نخشى أن يكون للبقرة المطلوبة لون خاص فإذا ذبحناها على خلافه نخسر ثمنها ولا تجدينا فتيلا (قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها، تسر الناظرين) والبقر بمثل هذا اللون وتلك السن كثير فأيها ذبحتم أجزأكم، فلم يقتنعوا بذلك أيضا بل استمروا فى عنادهم وتقاعسهم ثم (قالوا) لابد وأن يكون للبقرة المطلوبة علامة فارقة تميزها عن غيرها (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) تلك العلامة الفارقة (إن البقر تشابه علينا) وهو مبتذل فى الأسواق ولم نتصور بعد الحكمة أو الغاية من ذبح البقرة. لذلك فإنا نعتقد أن الله لم يأمرنا بذبح البقرة إلا وقد أراد بقرة خاصة بعينها ذات خاصية وقيمة (وإنا إن شاء الله لمهتدون) إلى البقرة التى أمرنا بذبحها (قال) ما دمتم تأبون إلا التكليف والتعيين ولم يكن ذلك مقصودا أصلا فاعلموا (إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض) أى لم تذلل لإثارة الأرض (ولا تسقى الحرث) ولا هى من البقر التى يسقى بها الحرث (مسلمة لا شية فيها) فلا علامة فارقة فيها، وعندئذ بحثوا عنها بهذه الأوصاف فلم يجدوها مستكملة كل هذه الصفات إلا عند إنسان واحد فقط وأبى بيعها إلا بأضعاف ثمنها فأيقنوا من غلو ثمنها وتميزها عن غيرها وانطباق أوصافها أنها حقا هى المقصودة من الأمر وعندئذ (قالوا الآن جئت بالحق) لقصر نظرهم وإلافإن ماقاله من أول مرة هو الحق ؛ وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : لو ذبحوا أية

بقرة أرادوا لأجزأت منهم لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم (فذبحوها) بعد أن اشتروها بثمن باهظ (وما كادوا يفعلون) لعدم وجود الرغبة الكافية فى نفوسهم لاتباع أوامر الله والرضوخ لأحكامه.

المغزى :

تنبه هذه الآيات إلى القواعد الآتية :—

١ — المبادرة بطاعة الرسول فى حينها كيفما اتفق خير من تأخيرها رغبة فى أدائها على أحسن وجه .

٢ — التردد فى الأمور مما يترتب عليه الإضرار والحرمان .

٣ — الانقياد لأوامر الله ، وأداء طاعته واجب وإن لم نقف على أسرارها .

الحكم :

يجب إطاعة أوامر الله بلا تردد ، وقد استنتج العلماء من ذكر هذه القصة عن الأمم الماضية قاعدة عامة هى أن شرع من قبلنا شرع لنا على شريطة أن يكون قد وصل إلينا عن طريق النبى صلى الله عليه وسلم لا عن طريق غيره . ومعنى هذا أن ما كان من باب الزجر والاعتبار فيراد به الوعظ ، وما كان من آيات الأحكام فالمراد منه الامتثال والاقتداء ، كما استنتجوا أيضا من قوله تعالى : «لافارض ولا بكر عوان بين ذلك» ، قاعدة أخرى أصولية هى جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن فى الأحكام إذ لا يعلم أنها بين الفارض والبكر إلا من طريق الاجتهاد .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

اللفظ :

(قتلتم) أمتم (نفسا) إنسانا (ادارأتم) تدافعتم : أى ينفى كل واحد منكم القتل عن نفسه (مخرج) مظهر (تكتمون) تخفون (اضربوه) أصيبوه (ببعضها) بجزء منها (يحي) يوجد الروح (الموتى) من فارقوا الحياة (يريكم) يجعلكم تنتظرون (آياته) العلامات الدالة عليه (تعقلون) تميزون (قست) غلظت (أشد) أعظم غلظة (يتفجر) ينبع (يشقق) يتصدع وتتفتح فيه فرج (يهبط) ينزل وقرئ بضم الباء (خشية) خوف (غافل) ساه (تعملون) تصنعون وقرئ (يعملون) .

المعنى :

ثم نبه الله بنى إسرائيل أيضا إلى أن ما أصابهم من قسوة القلب وموت العاطفة النبيلة فى نفوسهم إنما هو نتيجة تشككهم فى علم الله بحقائق الأمور ، كما يتجلى ذلك من قتلهم نفسا وإنكار كل واحد منهم

أمر القتل ومطالبة موسى بالدلالة على القاتل، فأظهره الله من بينهم بطريقة لا تجعل محلا للشك والطعن حيث أمرهم بضرب القتيل بجزء من البقرة التى لم يفهموا السر فى ذبحها ففعلوا وعاد القتيل حيا وسمى لهم قاتله وهو البادئ بالشكاية، وابتلاهم الله بعد ذلك بقسوة القلب جزاء على ما بأنفسهم من شك وارتياب فى علم الله سبحانه وتعالى، وقد عبر عن ذلك بقوله (و) اذكروا (إذ قتلتم نفسا) وأردتم اختبار موسى أو رب موسى فى معرفة القاتل (فادارأتم فيها) بأن نفى كل منكم جريمة القتل عن نفسه وقصد الاستمرار على الإنكار وهو يعلم أن لا شاهد بالقتل فلا سبيل إلى ثبوت الجريمة عليه كلية (والله) عالم السرائر لا يخفى عليه شىء من أمركم فهو (مخرج ما كنتم تكتمون) من عدم الإيمان لأن ذلك لا يخفى عليه سبحانه وتعالى، ومن أجل هذا لم يسمح لنبيه بإخباركم باسم القاتل وما قصدتم من وراء إخفاء أمره لئلا تتوهموا أو تزعموا أن ذلك قد اتصل إلى النبى عن طريق بشر منكم فجاءكم بمعجزة لم تخطر لكم على بال حيث أمركم بذبح البقرة أولا، ولما أن تداعيتم فى موضوع القتيل وأضمرتم فى نفوسكم ما أخفيتم قال تعالى (فقلنا اضربوه) أى القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة المذبوحة لنبين لكم الحكمة فى ذبحها ولنريكم (كذلك) كيف يستطيع أن (يحيى الله الموتى) ويجعلها تنطق وتخبر بقاتلها من تلقاء نفسها (ويريكم آياته) فى القضاء على الشكوك والأوهام التى تجيش بها نفوسكم وإن لم تعلنوها بألسنتكم (لعلكم تعقلون) ما نرمى إليه بذبح البقرة وحياة القتيل ونطقه أمامكم باسم القاتل من إخضاعكم لله سرا وجهرا (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) ولكنه بالرغم عن كل هذا فإن قلوبكم قد قست من بعد ذلك (فهى كالحجارة)

فى فقدان حاسة التأثير والانفعال بما يرد عليها من المواعظ والآيات بمعنى أنها هبطت من درجة الإحساس الحيوى إلى درجة الجماد (أو أشد قسوة) حيث نزلوا عن درجة الحجارة أيضا، لأن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها قد تتأثر بالماء الرقيق فيشقها وينفذ منها (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) فيحيى الأرض وينفع النبات والحيوان (وإن منها لما يهبط من خشية الله) بتأثير الأحداث السماوية والأرضية الهائلة فى الكون كالصواعق والزلازل والبراكين، وأما هذه القلوب التى كتب الله عليها القسوة نتيجة شكها وريبها برغم ما جاءها من البينات فإنها أصبحت لا تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر، ولم يعد فيها موضع للرحمة وحب الخير للانسان (وما الله بغافل عما تعملون) يا أبناء أولئك القوم من بنى إسرائيل فاحذروا أن تسيروا سيرتهم وقد بينا لكم ما نالهم.

المغزى:

تنبه هـــذه الآيات إلى أن التشكك فى علم الله بكل ما فى الكون وما بين ثنايا القلوب من شأنه أن يورث القسوة ويميت عواطف الرحمة فى الإنسان.

الحكم:

يجب الاعتقاد الجازم بالقلب أن الله بكل شىء عليم.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا

لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) .

اللفظ :

(تطمعون) تحرصون على نيل ما تريدون (يؤمنوا) يثقوا ويسلموا (فريق) طائفة وجماعة من الناس (يسمعون) يدركون بحاسة الأذن (كلام الله) الذى أنزل على رسله (يحرفونه) يغيرونه (عقلوه) فهموه وتدبروه (يعلمون) يعرفون (لقوا) صادفوا (الذين آمنوا) المؤمنين (خلا) انفرد (تحدثون) تخبرون (فتح) عرّف (يحاجوكم) يلزموكم الحجة (تعقلون) تدركون (يسرون) يكتمون فى نفوسهم (يعلنون) يظهرون (أميون) لا يعرفون الكتابة والقراءة (أمانى) ما يتمناه المرء (يظنون) يتوهمون .

المعنى :

بعد أن خاطب الله بنى إسرائيل وعدد نعمه عليهم وبين لهم الأسباب الداعية لما أصابهم من الذلة والهوان وغير ذلك ، وحذرهم من الاستمرار على ما كان عليه آباؤهم وجه الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم

ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يحسنون الظن ببنى إسرائيل ويحسبونهم أولى الناس بالإيمان ، لأنهم موحدون مصدقون بالوحى والبعث، ولأن الإسلام قدجاء مصدقا لمامعهم ، محلالهم الطيبات، محرما عليهم الخبائث فقال تعالى (أفتطمعون) فى التآخى مع بنى إسرائيل بما لديكم من نظريات معقولة وتأملون (أن يؤمنوا لكم) بعد ما تبين لهم من الحق (وقد) فاتكم أن هؤلاء من نسل أولئك الذين (كان فريق منهم) ممن اختاره موسى لصحبته عند خطاب ربه (يسمعون كلام الله) الذى أنزل على موسى وهو التوراة (ثم يحرفونه) بتغيير لفظه وتأويله (من بعد ما عقلوه) لفظا ومعنى ، وهم بذلك قد تعمدوا التحريف عن سوء قصد (وهم يعلمون) أى مع علمهم بالحقيقة والصواب لأنهم كانوا على صلة بموسى ولم يكونوا فى حالة ذهول ونسيان ، وبهذا ينتفى عنهم عذر الخطأ والنسيان ويثبت عليهم تعمدالفسق والعصيان ، فلا طمع فى حسن إيمانهم ولا أمل فى التآخى معهم والثقة بهم سيما وأنهم جبلوا على النفاق وتعودوا التملق (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا) لهم (آمنا) معكم بالله ليكتسبوا بذلك ثقتهم (وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا) أى قال كل واحد منهم لأخيه (أتحدثونهم) أى المؤمنين (بما فتح الله عليكم) به فى التوراة من أخبار بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب نصرته (ليحاجوكم به) بما رويتموه لهم عن نفس كتابكم وهو التوراة (عند ربكم) أمام ربكم بعد أن قامت عليكم الحجة (أفلا تعقلون) أن هذا يحط من قدركم ويضر بكم فوبخهم الله على هذيانهم حيث قال (أولا يعلمون أن الله) سبحانه وتعالى لا يخفى عليه أمر التحريف ولا يخفى عليه أمر التلون والنفاق ، فالله (يعلم ما يسرون) من كفر وكيد (وما يعلنون)

من إيمان كاذب للمؤمنين (ومنهم أميون) أى ومن بنى إسرائيل جماعة ليسوا من الطبقة التى تحرف كلام الله من بعد ما عقلوه لأنهم من العامة ولكنهم (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أى لا يتصورون من الدين إلا مجرد تلك الأمانى الزائفة التى كان يلقنها لهم أحبارهم من أنهم هم شعب الله وتلك الأكاذيب المختلقة التى كانوا يعلمونها لهم ويوهمونهم أنها من كلام الله فيتقبلونها ويعملون على اتباعها (وإن هم إلا يظنون) والحال أنهم ليسوا على علم بحقيقة الكتاب فإذا تلى عليهم سمعوه وإذا ذكر لهم تأويله تقبلوه من غير تأمل ولا تدبر مع أن هذه الطريقة لا توصلهم إلى الحق بل إنهم مكلفون ببحث حقيقة الدين واتباع أحكامه وعدم الاكتفاء بتقليد علمائهم تقليدا أعمى من غير تعقل ولا نظر صحيح .

المغزى :

تدل هـــذه الآيات على أن من الناس من لا أمل فى الاطمئنان لهدايته ، وهم :

(١) الذين يحرفون الكلم مع علمهم بحقيقته .

(٢) الذين يتلونون فى أقوالهم ويظهرون مالا يبطنون .

(٣) الذين يبنون تقليدهم للغير على الأوهام والظنون ويقلدونهم من غير تثبت ويقين . كالاعتقاد بأن مجرد الانتماء إلى الدين الاسلامى كاف للنجاة .

الحكم :

(١) تحريم تحريف كلام الله .

(٢) تحريم النفاق بألوانه .

(٣) عدم جواز الأخذ بالظن فى المقطوع به فى أصول الدين .
(٤) عدم جواز التقليد فى العقائد بل لا بد أن يكون ذلك عن يقين ثابت .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) .

اللفظ :

(ويل) كلمة معناها الهلكة ، وقيل اسم واد فى جهنم (يكتبون) يصورون اللفظ بحروف الهجاء (الكتاب) يطلق على كل كتاب يعتقد أنه منزل (يقولون) يتكلمون (يشتروا) يملكوا (ثمنا) ما كان عوض البيع (قليلا) ضد الكثير (يكسبون) يربحون .

المعنى :

بعد أن نبه الله نبيه والمؤمنين إلى أنه لا مطمع فى إخلاص بنى اسرائيل وإيمانهم للأسباب التى سردها فى الآيات السابقة ، عاد فنبههم إلى أن التبعة واقعة على عاتق أحبارهم الذين كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه ويختلقون الكذب ، ويضللون السواد الأعظم من الناس بما يملونه عليهم من الاختلاقات التى يوهمونهم أنها من الدين وليست منه فى شىء ، ولذلك رتب عليهم حكمه الآتى حيث قال (فويل للذين يكتبون الكتاب) كما يشاءون ويؤلفون الرسائل الدينية إلى جانبه ويدسون فيها من الاختلاقات ما يتجافى عن حقيقة الدين (بأيديهم)

ومن عند أنفسهم ، فيحرمون الحلال ، ويحلون الحرام ، ويخترعون من البدع فى الدين ما شاءت لهم أهواؤهم بدون أن يكون لهم مستند من كتاب الله (ثم يقولون هذا) أى ما كتبوه وألفوه (من عند الله) كذبا وبهتانا فيحملون العامة من الناس على التعبد به والاستغناء بما فيه من التعاليم عن كتاب الله الحقيق على زعم أنهم يفهمون من الدين ما لا يفهمه غيرهم ؛ ولا مطمع فى الواقع لهم من ذلك إلا تحويل الناس عن عقائدهم الدينية الصحيحة ولحب الشهرة والجاه واجتذاب العامة إليهم (ليشتروا به) أى ليستعيضوا بنشر دعايتهم (ثمنا قليلا) دراهم معدودة لربحهم وانتفاعهم (فويل لهم مما كتبت أيديهم) من اختلاق فى الدين وتلوين فى أكاذيبهم لا يسلم بها العقل ولا يقرها الدين (وويل لهم مما يكسبون) من ربح أضاعوا فى مقابله دينهم وباعوا من أجله ضمائرهم

المغزى :

ينبه الله العلماء ورجال الدين على الاطلاق بهذه الآية إلى ضرورة التحرى فى تحرير الأحكام وتقنينها وتجنب الكذب على الله ورسوله فيها وأن لا يبتدعوا فى الدين ما ليس منه . فقد قال صلى الله عليه وسلم «لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا حجة ولا عمرة حتى يدعها»

الحكم :

(١) تحريم الكذب على الله وترويج البدع وقد فرع العلماء عن هذا حكما هو عدم جواز أخذ المال على الأمر الباطل ولو كان بالتراضى .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ (٨٠) ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) .

اللفظ :

(تمسنا) تصيبنا (معدودة) قليلة (أتخذتم) صيرتم (عهدا) ميثاقا (يخلف) يغير (تقولون) تتكلمون (تعلمون) تعرفون (بلى) حرف تصديق بمعنى نعم (كسب) جمع (سيئة) معصية (أحاطت) أحدقت من جميع النواحى (خطيئته) ذنبه وقرئ (خطيئاته) و (خطيته وخطياته) (أصحاب) ملازمون (خالدون) مقيمون إقامة دائمة (آمنوا) صدقوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر (عملوا) صنعوا (الصالحات) الحسنات العظيمة (الجنة) الحديقة الدائمة النعيم .

المعنى :

لقد أعاد الله بيان الأسباب التى تحول دون الطمع فى إيمان بنى إسرائيل، فعدد منها أنهم يعتقدون أن عذابهم قد تحدد من قبل فلا يمحى بإيمانهم ولا يزداد بإقامتهم على كفرهم ، وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) بقدر ماعبدوا العجل ، وهى سبعة أيام أو أربعون يوما على زعمهم ، وقد رد الله على فريتهم هذه بقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام (قل) يامحمد لمن حولك من بنى إسرائيل من أين لكم هذا ؟ هل (أتخذتم عند الله عهدا) بذلك (فلن يخلف الله

عهده) فمن أجل هذا وثقتم كل الثقة ورفضتم الإيمان واتباع هذا الرسول (أم) أنه لادليل عندكم على هـــذا وبذلك فأنتم (تقولون على الله ما لا تعلمون) وفى كلتا الحالتين فأنتم خاطئون فى جحودكم وعدم انقيادكم لهذا الدين الحنيف (بلى) ومن المعقول أن تؤمنوا وتصدقوا أنّ (من كسب سيئة) وارتكب إثما فى هذه الحياة فإنما يؤاخذ على جرمه هو نفسه ومتى استرسل فى الذنوب وأصرّ على العصيان (وأحاطت به خطيئته) بحيث أصبح أسير الشهوات حليف الموبقات (فأولئك) من (أصحاب النار) الذين كتب الله عليهم أن يكونوا من سكانها و (هم فيها خالدون) فعلا لاصرارهم على ارتكاب السيئات (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من كل مأمور به أو مندوب إليه فسينالون أجرهم الذى وعدهم به الله و (أولئك أصحاب الجنة) الذين هيئوا الآن يكونوا من سكانها و (هم فيها خالدون) جزاء ما قدموا من إيمان صحيح وعمل صالح .

المغزى :

تنبه هذه الآيات إلى أن بعض الاعتقادات الفاسدة التى لا تستند إلى دليل صحيح من الكتاب والسنة قد يكون لها تأثير فى تقاعس الناس عن اتباع الدين الصحيح والعمـــل بما جاء فيه ، وذلك كتقاعس بعض المسلمين عن أداء العبادات اعتمادا على مجرد الأمل فى شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أو حتى على عفو الله مع تماديهم فى العصيان والشرك فهذا ممنوع وينبغى التحرز منـه ، لأن الشارع أوضح الحلال والحرام وقدر العذاب على المذنبين وجعل وسيلة النجاة فى الآخرة هى الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

الحكم :

يجب أن لايعتمد الإنسان على حكم من الأحكام من الأوامر والنواهى أو التحليل والتحريم مالم تكن تلك الأوامر صحيحة النقل عن الكتاب والسنة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِي إِسْرَٰٓئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) .

اللفظ :

(أخذنا) أمسكنا (ميثاق) عهد (إسرائيل) لقب نبى الله يعقوب (تعبدون) تدعون وتوحدون وتطيعون وقرئ (لاتعبدوا) و (أن لاتعبدوا) ، و(يعبدون) (الوالدين) الأب والأم (إحسانا) منتهى البر (القربى) صلة الرحم (اليتامى) من فقدوا أباءهم قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال (المساكين) من يعجزون عن كسب ما يكفيهم (حسنا) وقرئ بضم الحاء والسين وفتحهما و (حسنى) على المصدر كلاما جميلا (أقيموا) أديموا وباشروا (الصلاة) الاتجاه إلى الله (آتوا) فعلوا (الزكاة) ما يقدمه الإنسان من المال لتطهيره (توليتم) أعرضتم (معرضون) صادّون .

المعنى :

لقد عدد الله أيضا من ضمن الأسباب التى تحول دون الطمع فى إيمان بنى إسرائيل عدم تمسكهم حتى بشريعتهم السابقة حيث قال (و) اذكر يامحمد (إذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) من قبل وهذا الميثاق هو أن (لا تعبدون إلا الله) والأمر بعدم عبادة غيره يستلزم الأمر بعبادته ، ولم يصرح بهذا لأن اليهود حتى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ما كانوا يمتنعون عن عبادة الله ولكنهم كانوا يشركون معه غيره فأراد تنبيههم إلى أن الميثاق الأساسى هو إفراد الله بالعبادة لامجرد عبادته بمعنى أنه لا ينبغى للانسان أن يعتقد فى أحد قدرة على النفع والضر غير الله فلا يعول قط على سواه فيما لا يقدر عليه غير الله ، ثم قال (وبالوالدين إحسانا) أى وأوصيناهم بالإحسان إلى والديهم مقابل مالهم من إحسان سابق (وذى القربى) لتقوية أواصر المودة ووشيجة القربى بين العائلات (واليتامى) لئلا يفسدوا فيفسد بهم غيرهم فيعم الفساد الأمة (والمساكين) لأن الإحسان هو خير وسيلة لامتلاك النفوس وبسط أجنحة الود بين طبقات الشعب (وقولوا للناس حسناً) أى وقلنا لهم قولوا للناس قولا حسنا، وليس معنى هذا الحسن أن تتلطفوا بالقول معهم فحسب ، بل إن المراد من ذلك هو أداء واجب النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) على الصورة التى أرشدكم إليها موسى من قبل ثم أرشدكم إليها محمد صلى الله عليه وسلم الآن (ثم) كان من أمركم أنتم أيها الإسرائيليون أن (توليتم) عن العمل بما قضيت به عليكم (إلا قليلا منكم) كما ترون (وأنتم معرضون) بالفعل عن كل هذا إذ اتخذ بعضكم بعضاً أرباباً من دون الله وتكالبتم على جمع الحطام ، وألقيتم من بينكم واجب التناصح والتشاور .

المغزى :

ينبه الله بهذه الآية إلى أنه يجب على الإنسان فى هذه الحياة عدة واجبات فرض عليه أداءها : واجب أمام ربه : أن يخلص له العبادة دون سواه ، فلا يدعو غيره ولا يستعين بأحد سواه ؛ وواجب أمام الناس : هو أن يقابل إحسان والديه بمثله ، وأن يتودد إلى ذوى قرباه ، ويساهم فى كفالة اليتيم ، وسد حاجة المساكين ، وأن يحسن خلقه ويسدى النصيحة إلى من عرف ومن لم يعرف ؛ وواجب أمام نفسه : هو أن يهذبها ويصقلها بالصلاة المفروضة ويزكيها ببذل المال فى سبيل الله.

الحكم :

اتفق العلماء على وجوب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين مع إيصال المنافع إليهما قدر الحاجة وحرمة إيذائهما البتة . واختلفوا فى من يطلق عليهم ذوى القربى، فقال الشافعى: هم كل وارث محرم وغير محرم بمافيهم الأجداد والأحفاد عدا الأب والابن لأنهما لا يعرفان بالقريب ، وقيل لا يدخل الأصول والفروع مطلقاً ، وقيل يدخل الجميع ؛ ويتفرع عن ذلك عدة أحكام فى المذاهب .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى

تُفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦) .

اللفظ :

(أخذ) أمسك (ميثاقكم) عهدكم (تسفكون) تصبون (تخرجون) تظهرون (دياركم) مساكنكم (أقررتم) اعترفتم (تشهدون) تقرون (تقتلون) تسفكون الدماء وقرئ (تُقتِّلون) (فريقا) طائفة جماعة من الناس (تظاهرون) تعاونون وقرئ (تتظاهرون) و (تَظهّرون) (الإثم) اقتراف مالا يحل (العدوان) التعدى والظلم (يأتوكم) يجيئوكم (أسارى) من الأسر ، وقرئ (أسرى) بفتح الهمزة من غير ألف وإسكان السين (تفادوهم) تخرجون الفدية عنهم ، وقرئ (تفدوهم) بفتح التاء وإسكان الفاء بلا ألف (محرم) ممنوع (تؤمنون) تصدقون (تكفرون) تجحدون (جزاء) المكافأة على الشىء (يفعل) يعمل (خزى) هوان (يوم القيامة) يوم البعث (يردون) يرجعون وقرئ (تردون) (العذاب) كل ماشق على الإنسان (غافل) ساه (تعملون) تصنعون وقرئ (يعملون) (اشتروا) تملكوا (يخفف) يهون (ينصرون) يجدون من يعينهم على دفعه أو تحمله .

المعنى :

بعد أن عدد الله لنبيه الأسباب التى تحول دون الطمع فى إيمان بنى اسرائيل فيما تقدم أخذ يبين له أيضا ما هم عليه من طبائع لاسبيل إلى تحويلهم عنها وقد كانت ولا تزال من أكبر الأسباب المانعة من هدايتهم وانقيادهم لله ورسوله وما جاء من عنده ، ذلك لأن السر فى تأخر الأمم إنما هو لعدم التمسك بالأخلاق الفاضلة واتباع الأوامر الإلهية ، وقد نوّه سبحانه وتعالى بذكر هذه الطبائع بما يأتى : —

(الأول) التناقض فى الأقوال والأفعال ، وقد أشار إليه بقوله (وإذ أخذنا ميثاقكم) بالانتهاء عن أمرين : هما أولا (لا تسفكون دماءكم) وثانيا (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى إن الله قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وأيما عبد أو أمة وجدوه من بنى اسرائيل فليشتروه بما قام من ثمنه ويعتقوه ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس وبنو النضير حلفاء الخزرج وكانا يقتتلان ويخربون ديار بعضهم ويخرجونهم منها ولكنه إذا أسر رجل منهم جمعوا له المال الكافى لفدائه ويقولون إنا نحاربهم تأييداً لحلفائنا ونفديهم لأن التوراة قد أوجبت علينا فداءهم وبذلك ألزمهم الله الحجة وأثبت عليهم تناقضهم حيث قال (ثم أقررتم) بحصول الميثاق ممن قبلكم (وأنتم تشهدون) اليوم على صحته (ثم أنتم هؤلاء) الجاحدون المشاهدون (تقتلون أنفسكم) من إخوانكم المحاربين إلى جانب حلفائهم (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) إلى جانب حلفائكم المشركين (تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) دون أن يكون

هناك دين تناصرونه أو غاية سامية تعملون لتأييدها (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) مع أنكم أنتم الذين حاربتموهم وأخرجتموهم من ديارهم وحملتموهم على الوقوع فى الأسر (وهو محرم عليكم إخراجهم) وهذا تناقض ظاهر فلا أنتم اتبعتم التوراة ورفضتم الاشتراك فى الحرب ضد بعضكم ولا أنتم تجاهلتم ماجاء فى التوراة بتاتاً فلم تفدوا الأسير منكم (أفتؤمنون ببعض الكتاب) فيما يتعلق بفداء الأسير (وتكفرون ببعض) فيما يتعلق بسفك دماء بعضكم وإخراجهم من ديارهم (فما جزاء من يفعل ذلك) أى الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر أو التلاعب بالدّين واتباع ما يروق لكم منه (منكم) بعد اليوم (إلا خزى فى الحياة الدنيا) لأنه اتصف بصفات المنافقين واتسم بسيماتهم فاستحق الهوان والخذلان (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) جزاء نقضهم عهد الله وميثاقه وعدم تجنبهم ما نهى الله عنه (وما الله بغافل عما تعملون) من أمثال هذا التناقض والاختلاف، ولاغرو فهذا شأن (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا) وما فيها من متاع زائل (بالآخرة) لنقص فى عقولهم (فلا يخفف عنهم العذاب) لفساد أخلاقهم (ولا هم ينصرون) إذ لا نصير ولا شفيع فى ذلك اليوم إلا بأمره.

المغزى:

تدل هذه الآيات على أن التناقض فى الأقوال والأفعال خصوصا فيما له علاقة بالدين واتباع بعضه والاعراض عن البعض الآخر تمشياً مع الرغبة النفسية وايثارا للدنيا على الآخرة مما يسبب الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

الحكم :

تحريم الاعتداء على الغير إلا بحق مشروع ، وتحريم التصرف فى أوامر الله بحسب الأهواء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰتِ وَأَيَّدْنٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوٰى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) .

اللفظ :

(آتينا) أعطينا (الكتاب) التوراة (قفينا) اتبعنا (الرسل) الأنبياء الذين أرسلوا من قبل الله للبشر (البينات) الأدلة (أيدنا) أثبتنا (روح القدس) الوحى ، وقرئ بإسكان الدال (تهوى) تميل (النفس) القوة المهيمنة على الإنسان (استكبرتم) تعاظمتم (فريقا) الجماعة من الناس (كذبتم) أنكرتم (تقتلون) تزهقون الأرواح (غلف) عليها غطاء (لعنهم) غضب عليهم (كفرهم) جحدهم (يؤمنون) يثقون .

المعنى :

الثانى من طبائع بنى إسرائيل الكبرياء ، وقد أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله (ولقد آتينا موسى) من قبلك (الكتاب) الذى هو

التوراة فظل يدعو قومه إلى العمل بها إلى أن مات (وقفينا من بعده بالرسل) وهم يوشع وشمويل وداود وسليمان وشعيب وأرمنياء وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيي وغيرهم وكلهم يدعون بدعوته ويأمرون باتباع شريعته (وآتينا عيسى بن مريم) الذى انتهت به رسالة بنى إسرائيل وجاء بشريعة نسخت أكثر شرع موسى عليه السلام ، وأقام لهم (البينات) على صحة رسالته من المعجزات التى ظهرت على يده كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص (وأيدناه بروح القدس) الذى كان يملى عليه الإنجيل المدوّن للشريعة التى يجب أن يسيروا عليها ، فاستكبروا عن الاصغاء لدعواتهم والرضوخ لتعاليمهم ، فقل لهم يا محمد إلى متى هذا الحال (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم) من الأحكام (استكبرتم) عن الإذعان لها واتباعها وقاومتم الرسل (ففريقا) منهم (كذبتم) بما جاءوا به (وفريقا) منهم كنتم (تقتلون) كأمثال زكريا ويحيي (وقالوا) أى بنو إسرائيل (قلوبنا غلف) عن تفهم ثمرة مالم نعلم به من الأحكام (بل لعنهم الله بكفرهم) بما أنزل من عند الله ، لأنهم أمروا باتباع ما أنزل إليهم وإن لم يدركوا الحكمة منه (فقليلا ما يؤمنون) ما داموا لا يتبعون إلا ما مالت إليه نفوسهم وتبين لهم أمره .

المغزى :

يحذر الله بهاتين الآيتين من ارتكاب ما ارتكبه بنو إسرائيل من الاستكبار عما لا تقبله النفوس من تعاليم الدين والاحتجاج على ذلك بعدم إدراك حكمة التشريع فى بعض الأحكام لنتخذ من ذلك عظة وإرشادا .

الحكم :

حرمة الكبرياء ووجوب أداء العبادات لمحض الطاعة ، والتسليم بها وإن لم تدرك حكمتها ، ووجوب عدم الاحتكام للعاطفة والهوى فى ذلك .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) .

اللفظ :

(جاءهم) أتاهم (مصدق) مؤيد، وقرئ « مصدقا » (يستفتحون) يطلبون الفتح (ما عرفوا) ما علموا (كفروا) جحدوا وأنكروا (لعنة الله)غضب الله (بئس) كلمة مستعملة للذم ، من بئس الرجل : إذا أصاب بؤسا (اشتروا) ملكوا بالبيع (أنزل) أوحى (بغيا) ظلما (ينزل) يرتب وقرئ (ينزل) بالتخفيف (فضله) إحسانه (يشاء) يريد (عباده) جمع عبد وهو الإنسان حرا كان أو رقيقا (باءوا) رجعوا (غضب) بغض (عذاب) كل ما شق على الإنسان (مهين) مذل .

المعنى :

الطبع الثالث من طبائع بنى إسرائيل الحسد ، وقد أشير إليه بقوله تعالى (ولما جاءهم كتاب) وهو القرءان الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (من عند الله) ولم يكن مخالفا ولا مكذبا لما بين أيديهم من كتب أنبيائهم السابقين ، بل هو (مصدق لما) كان (معهم) من التعاليم الإلهية (وكانوا من قبل) لعلمهم بما فى التوراة من الإخبار عن نبوة محمد وما اتصف به (يستفتحون على الذين كفروا) فيقولون اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقاتلهم (فلما جاءهم) ذلك النبى المنتظر وفق (ما عرفوا) من الصفات وتأكدوا من أنه هو ذلك النبى الذى بشروا به (كفروا به) كعادتهم فى تكذيب الرسل من قبل حسدا منهم أن يكون هذا النبى من العرب لا من بنى إسرائيل (فلعنة الله على الكافرين) الذين يجحدون الحق بعد ثبوته لهم ويظنون أنهم بذلك قد خلصوا نفوسهم من العقاب واشتروها من العذاب ، قال تعالى إزدراء بعملهم هذا (بئسما اشتروا به أنفسهم) مما حسبوه خيرا لهم (أن يكفروا بما أنزل الله) لا لعدم القناعة بنبوته صلى الله عليه وسلم ولا عن جهل وعدم علم بل (بغيا) وعنادا وحبا فى تمنى زوال هذه النعمة عمن ارتضاه مولاه لهذه الدعوة ، (أن ينزل الله من فضله) الرسالة (على من يشاء من عباده) وقد كانوا يتوقعون نزولها على واحد منهم وهذا هو الحسد بعينه (فباءوا بغضب) على الحسد الذى هو فى الواقع بمثابة الاعتراض على الله فى جعله ختام الرسالة فى العرب الذين هم من نسل إسماعيل بعد أن كانوا يتوقعونه

فى نسل يعقوب بن إسحاق (على غضب) ترتب عن كفرهم بالقرءان الذى جاءهم به النبى محمد صلى الله عليه وسلم (وللكافرين) هؤلاء (عذاب مهين) أى عذاب شديد على الكفر فى الآخرة ومذلة ومهانة فى الدنيا على الحسد. فالحسود لا يسود، ومن يعترض على تصرفات الله يذله الله.

المغزى :

يحذر الله بهاتين الآيتين من ارتكاب ما ارتكبه بنو إسرائيل من عدم الإذعان للحق فى حالة ما إذا جاءنا عن طريق من لا نحب لأن هذا معناه الحسد والاعتراض على الله فيما صنع وهذا يعد فى درجة الكفر.

الحكم :

حرمة الحسد بأنواعه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١).

اللفظ :

(آمنوا) ثقوا وصدقوا (أنزل) أوحى (يكفرون) يجحدون (وراء) خلف (الحق) العدل (مصدق) مؤيد (تقتلون) تزهقون الروح (أنبياء) جمع نبى: المنبئون بأوامر الله بوحى من الله.

المعنى :

الطبع الرابع من طبائع بنى إسرائيل المواربة أو المغالطة، وقد أشير

إليه بقوله تعالى (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) على محمد صلى الله عليه وسلم من القرءان الكريم (قالوا) بل نحن (نؤمن بما أنزل علينا) فى التوراة وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شريعة موسى ويقصدون بقولهم هذا أنهم لايعترفون بما أنزل على سواهم (ويكفرون بما وراءه) وإن لم يصرحوا بهذا مغالطة ومداهنة وهم يعلمون بصحة رسالة هذا النبى الكريم وأن دينه هو الدين الصحيح (وهو الحق) لأنه جاء (مصدقا لما معهم) من الكتاب الذى يزعمون التمسك به ، وقد أمر الله نبيه أن يعرض عن مواربتهم هذه ويناقشهم فيما يدعون حيث قال(قل) يامحمد إذا (فلم) كنتم (تقتلون أنبياء الله) الذين تدعون التمسك بما جاءوا به (من قبل) فى عهد رسالتهم (إن كنتم) حقا (مؤمنين) صادقين فيما تزعمون .

المغزى :

يحذر الله من المواربة والمغالطة فى القول فإنها لاتقبل عند ذوى البصائر النيرة ، ولا تغنى من الحق شيئا .

الحكم :

يجب على المؤمن أن يكون صادقا صريحا فى أقواله .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (١٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا

فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٣٩) .

اللفظ :

(البينات) الدلائل والحجج (اتخذ) صير (العجل) ولد البقر (ظالم) واضع الشيء فى غير محله (أخذنا) أمسكنا (ميثاقكم) عهدكم (رفعنا) أعلينا (الطور) الجبل (آتينا) أعطينا (بقوة) باكراه (اسمعوا) أدركوا بقوة السمع (عصينا) خالفنا الأوامر (أشربوا) اشتد بهم الحب حتى امتزج وخالط قلوبهم (كفرهم) جحودهم (بئسما) أصابوا بؤسا (إيمانكم) تصديقكم .

المعنى :

الطبع الخامس من طبائع بنى إسرائيل العناد وهو الذى لاح فى موقفهم حيال موسى عليه السلام رغم ما جاءهم به من البينات ولذلك أتى به الله فى أسلوب مخاطبة بنى إسرائيل حيث قال (ولقد جاءكم موسى) من قبل (بالبينات) التى تثبت لكم رسالته من ربه الذى أخبركم أنه ذاهب لمناجاته ، فأبى عليكم عنادكم إلا أن تتناسوا تلك البينات وما كاد يبتعد عنكم حتى رجعتم إلى إصراركم (ثم اتخذتم العجل من بعده) إلها تعبدونه من دون الله (وأنتم ظالمون) بهذا العناد بعد ما ظهر لكم من البينات .

أما الطبع السادس من طبائع بنى إسرائيل فهو اللجاج ؛ وهو ذلك الذى بدا من موقفهم تجاه رب العزة سبحانه ، حيث تجلى عليهم بقدرته

وكلفهم باتباع أوامره ، فما كان منهم إلا أن تمادوا فى العناد وأعلنوا العصيان صراحة ، وقد أشار إلى ذلك تبارك وتعالى فى مخاطبته لبنى إسرائيل حيث قال (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) تخويفا وتهديدا وقلنا لكم (خذوا ما آتيناكم) من التوراة واعملوا بما فيها (بقوة) وإلا فإنا سننزل عليكم العذاب ألوانا ونوقع عليكم الجبل (واسمعوا) إنا قد أنذرناكم بنزول العقاب بكم (قالوا سمعنا) ما نزل من التوراة (وعصينا) فلا نعمل بما فيها (وأشربوا فى قلوبهم) حب (العجل) والإيمان به (بكفرهم) الناشئ من اعتقادهم جواز التشبيه فى حق الله وعبادة غيره معه (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) الذى يسوغ لكم نسبة التجسيم إلى الله وتصوره فى شخص العجل (إن كنتم مؤمنين) بالله وفق تعاليم موسى لكم ، وهى أن الإيمان توحيد الله وإخلاص العبادة له وعدم إشراك غيره معه .

المغزى :

تحذر هاتان الآيتان من مغبة العناد واللجاج إذ هما من شر الطبائع وأسوأ الأخلاق التى تؤدى إلى الكفر وسوء العاقبة .

الحكم :

وجوب الرضوخ للحق والإقلاع عن العناد واللجاج .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ (٩٥) .

اللفظ :

(خالصة) صافية (دون) غير (الناس) اسم وضع للجمع واحده إنسان (تمنوا) اطلبوا (صادقين) الذين يتكلمون عن قناعة ويقين (قدمت) فعلت (عليم) المتصف بالعلم (الظالمين) الذين ينكرون الحق ويعتدون على الغير .

المعنى :

الطبع السابع من طبائع بنى إسرائيل كذب الإنسان على نفسه وهو أشر أنواع الكذب ، وقد تجلى ذلك منهم فى ادعائهم بأنهم هم الناجون يوم القيامة لأنهم أبناء الله وأحباؤه المنحدرون من أكابر أنبيائه ، فردّ الله على ذلك بقوله (قل إن كانت لكم الدار الآخرة) أى الجنة (عند الله خالصة من دون الناس) كما تزعمون (فتمنوا) بقلوبكم (الموت) لتظفروا بعده بالحياة السعيدة التى وعد الله بها عباده المخلصين (إن كنتم) فيما زعمتم (صادقين) غير واهمين ، مع أنهم لم يتمنوا الموت قط (ولن يتمنوه أبدا) إذ هم يعلمون من أنفسهم أنهم ما كانوا صادقين فيما يدعون بل هم يدركون فى أنفسهم حقيقة أمرهم وعدم نجاتهم فى الآخرة فيكرهون الموت ويخشون العذاب (بما قدمت أيديهم) من السيئات (و) هم يعلمون إلى جانب هذا أن (الله عليم بالظالمين) المفترين الكذب على الله بقولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم فسوف لا يفلتهم الله من عقابه على هذا الكذب الصراح .

المغزى :

تنبه هاتان الآيتان إلى أن من شر البلايا وأحط أنواع الكذب كذب الإنسان على نفسه مع علمه بحقيقة أمره ، لأنه يكون فى الأول كذبا ، ثم يرسخ فى النفس غالبا فيصبح أشبه بحقيقة يؤمن بها الإنسان فيعود ذلك عليه بأسوإ النتائج .

الحكم :

حرمة ادعاء الإنسان لنفسه ما ليس له .

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيٰوةٍ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) .

اللفظ :

(تجد) تلقى (أحرص) أشد طمعا (حياة) ضد الممات وقرئ (الحياة) (أشركوا) جعلوا مع الله إلها آخر (يود) يحب (يعمر) يعيش زمنا طويلا (يزحزحه) يباعده (العذاب) كل ما شق على الانسان (بصير) خبير (يعملون) يصنعون وقرئ (تعلمون) .

المعنى :

الطبع الثامن من طبائع بنى إسرائيل التهافت على حب الحياة حبا يجعلهم يفرطون فى هذا السبيل بدينهم وأخلاقهم ومروءتهم ، وقد أشار

إلى ذلك الله سبحانه و تعالى بقوله (ولتجدنهم) يا محمد (أحرص الناس على حياة) وهذا هو السبب الذى حملهم على التقاعس عن دخول الأرض المقدسة فى الماضى امتثالا لأمر موسى وهو السبب الذى سيحملهم على التقاعس عن أداء واجب نصرتك والجهاد تحت لوائك ، بل ويحملهم على الحرص على الأموال أن تبذل فى سبيل الله ويدعوهم إلى الانهماك فى اللذات والشهوات ، فلا خير يرجى منهم ما داموا على هذا الحال (ومن الذين أشركوا) ستجد أيضا من يحرص على الحياة بحيث (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) والحياة الدنيا إنما جعلت لتكون مزرعة للآخرة وسبيلا للتخلص من عذاب الله ، فماذا تفيدهم الحياة إذا لم يستغلوها فى سبيل إرضاء الله ؟ وماذا يجديهم طول العمر إذا ما انتهى بالموت (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) على أن إطالة العمر لا تزحزح عن العذاب فلأى شئ إذا كل هذا الحرص على الحياة ؟ (والله بصير بما يعملون) والله مطلع على ما يصنعون وسيحاسبهم حسابا عسيرا على كل ما اقترفوه فى هذه الحياة التى فتنوا بحبها ومضوا فيها على غير هدى .

المغزى :

يحذر الله المؤمنين من التكالب على الدنيا ، والتفانى فى سبيلها إلى حد يدعونا إلى كراهة الموت لئلا نتقاعس عن واجب الجهاد لإعلاء كلمة الله ونضن عن الانفاق فى سبيله وهذا من أكبر العوامل فى تأخر الأمم ولذا قال صلى الله عليه وسلم : «يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى

على القصعة أكلتها ، قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قالوا وما الوهن يارسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت » .

الحكم :

كراهة التفانى فى حب الدنيا وشؤنها واستحباب ذكر الموت والأمل فيما بعده وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم « اذكروا هازم اللذات » .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) .

اللفظ :

(عدوا) خصما (جبريل) بكسر الجيم ، وقرىء بفتح الجيم وكسر الراء ، وقرىء أيضا بفتح الجيم والراء مهموزا (جبرئيل) و(جبرئل) اسم ملك الوحى (مصدقا) مؤيداً (هدى) دلالة برفق (بشرى) خبر سار (المؤمنين) المصدقين بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم (ملائكته) أرواح نورانية (رسله) الأنبياء الذين أرسلوا لهداية البشر (ميكال) وقرىء (ميكائل) و (ميكئل وميكئيل وميكيئل) اسم ملك (الكافرين) الجاحدين المكذبين .

المعنى :

الطبع التاسع من طبائع بنى إسرائيل خصومتهم لكل من يدعو إلى الحق ، وقد تجلى ذلك فى إعلانهم الخصومة ضد جبريل باعتباره هو الملك الذى عهد إليه إنزال القرءان على النبى العربى فإنهم لما طبعوا عليه من عدواة كل داع إلى الحق زعموا أن جبريل عدوهم لأنه أمر أن يجعل الرسالة فيهم فجعلها فى غيرهم وقالوا للمؤمنين لو أن ميكائيل هو الذى ينزل عليكم لاتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، فكشف الله سرهم وصرح لهم بأن عداوة الداعين للحق عداوة للحق نفسه ، بل عداوة للآمر به وهو الله سبحانه وتعالى حيث قال (قل) يامحمد (من كان عدوا لجبريل) للسبب الذى يزعمونه فإن عداءه باطل لأنه لم يكن لجبريل أى تصرف فى الأمر بل هو ملك رسول منفذ لارادة ربه وعند ما أمر بتبليغ القرءان إليك (فإنه نزله على قلبك) عن حكمة إلهية (بإذن الله) وأمره وهذه الحكمة هى أن يكون (مصدقا) ومؤيدا (لما) سبق (بين يديه) من كتب الأنبياء السابقين ليكون دينا قيما للناس أجمعين ، ومن أجل هذا أنزل عليك باعتبارك من العرب ولو أنه أنزل على واحد من بنى إسرائيل لاعتبر خاصا بهم وهذا ما لم يرده الله بل أراد أن يكون القرءان للعموم (وهدى) لمن رام الهداية (وبشرى) بعظيم الثواب الذى أعده الله (للمؤمنين) الذين اهتدوا بما جاء فى القرءان من أوامر ونواهى فصدقوا بما ورد فيه من أخبار يوم القيامة ، وحيث ثبت أن جبريل لم يكن له أى تصرف فى إنزال القرءان على النبى صلى الله عليه وسلم دون غيره تبين أن عداءهم لجبريل إنما كان عداء للحق والداعين إليه ،

بل عداء الله المقدر لكل ذلك ولذا قال تعالى (من كان عدوا لله) الذى قضى بجعل الرسالة فى نبيه العربى (وملائكته) المطيعين لأوامره المبلغين لأحكامه (ورسله) الصادعين برسالته (وجبريل وميكال) بصورة خاصة باعتبارهما موضع البحث (فإن الله عدو للكافرين) الذين لا يؤمنون بنزول هذا القرءان من عند الله على عبده محمد بن عبد الله وعداوة من عادى الله وملائكته ورسله لا تؤثر فيهم بخلاف عداوتهم له فإنها تؤدى به فى العاجلة إلى الذلة والمسكنة ، وفى الآجلة إلى العذاب الدائم المقيم .

المغزى :

تنبه هذه الآية إلى أن عداوة القائم بالحق والداعى إليه عداء للحق نفسه وعداوة القرءان وهو أفضل الكتب كعداوة سائر الكتب الإلهية لأن الغرض من الجميع واحد ، وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الأنبياء كعداوة جميع الرسل لأن وظيفة الجميع واحدة وعداوة أولياء الله عداوة لله كما جاء فى الحديث القدسى «من عادلى وليا فقد آذنته بالحرب»

الحكم :

يحرم ذم الملائكة والأنبياء والرسل وكل من يدعو إلى الحق .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) .

اللفظ :

(أنزلنا) أوحينا (آيات) جمع آية وهى جمل من القرءان (بينات) واضحات (يكفر) يجحد (الفاسقون) الخارجون عن طريق الصلاح (أوكلما) الهمزة للانكار والواو للعطف وقرئ (أوْ كلما) (عاهدوا) تعاقدوا وقرئ (عوهدوا وعَهدوا) (عهدا) ميثاقا (نبذه) طرحه وألقاه (فريق) جماعة من الناس .

المعنى :

الطبع العاشر من طبائع بنى إسرائيل المكابرة فى الحق ، وقد تجلى ذلك فيما كان بينهم وبين معاذ بن جبل حيث قال لهم : يامعشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبرونا أنه سيبعث وتصفوه لنا فأجابه بعضهم بقوله ماجاءنا بشىء من البينات وما هو بالذى كنا نذكره لكم فأنزل الله تعالى قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) فكابروا وقالوا ماجاءنا بشىء من البينات (وما يكفر بها) ويكابر فى حجتها بعد أن جاءت (إلا الفاسقون) الذين تجاوزوا فى الكفر النهاية القصوى .

وأما الطبع الحادى عشر من طبائع بنى إسرائيل فهو نقض العهود ، وقد تجلى ذلك فيما قاله جماعة منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما ذكرهم بما أخذه الله عليهم وعهده إليهم من أن يؤمنوا به فقال له مالك بن الصيف والله ماعهد الله إلينا عهداً من أجلك ولا أخذ علينا ميثاقا فأنزل الله قوله (أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وزعم أنه ماعلم به ولم يحصل ، وهذا هو شأنهم من قبل مع الأنبياء السابقين فما قاله لك اليوم مالك بن الصيف ليس هو رأيه الخاص فيك (بل أكثرهم لايؤمنون) لأنهم قوم لاعهد لهم ولا ميثاق ، ولا إيمان لمن لاعهد له .

المغزى :

تدل هاتان الآيتان على أن من كان طبعه المكابرة فى الحق ونقض العهد فلا سبيل إلى إيمانه ، لأن الدين الإسلامى دين قناعة ووفاء ، ومن طبعه المكابرة لا يمكن أن يقنع ، وناقض العهد لا ثبات له فلا يؤمن جانبه.

الحكم :

حرمة المكابرة فى الحق ونقض العهود .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ كِتٰبَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيٰطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمٰنَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٰنُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هٰرُوتَ وَمٰرُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّٰى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) .

اللفظ :

(مصدق) مؤيد (نبذ) طرح ورمى (فريق) جماعة من الناس (أوتوا) أعطوا (وراء) خلف (ظهور) الظهر مايقابل البطن للانسان (يعلمون) يعرفون (اتبعوا) انقادوا (تتلوا) تقرأ (الشياطين) كل عات متمرد من إنس وجن أو دابة وقرئ (ولكن الشياطين) بسكون نون لكن وضم نون الشياطين (ملك) الحكم والسلطان (كفروا) جحدوا (السحر) إظهار الباطل فى صورة الحق (ملكين) بفتح اللام من الملائكة، وقرئ بكسرها من الملك وهو السلطان (بابل) مدينة بأرض شنعار على شاطىء نهر الفرات (هاروت وماروت) اسمان لملكين وقرئ (هاروتُ وماروتُ) (فتنة) ابتلاء (تكفر) تجحد (يتعلمون) يتفهمون (يفرقون) يفصلون (ضارين) ملحقين الضرر وقرئ (بضارى) بالإضافة لأحد (إذن) اجازة (يضر) الضر سوء الحال (ينفع) النفع حصول المطلوب (اشترى) ابتاع (الآخرة) يوم القيامة (خلاق) النصيب الوافر من الخير (بئسما) فعل للذم، من بئس: إذا أصاب بؤسا (آمنوا) وثقوا (اتقوا) خافوا (مثوبة) جزاء بخير وقرئ (لمثوبة) (خير) اسم تفضيل مخفف أخير بمعنى حصول الشىء على كماله.

المعنى :

الطبع الثانى عشر من طبائع بنى اسرائيل هو نبذهم الدين كلية عند الاقتضاء، وقد تجلى ذلك فى نبذ فريق منهم للتوراة وراء ظهورهم بمعنى تركهم العمل بها عند ما جاء القرءان مؤيداً لها وداعيا لمثل ماتدعوهم إليه من توحيد الله وعدم الشرك حيث قال تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) من التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) ممن يدّعون التمسك به من بنى اسرائيل (كتاب الله) الذى

هو التوراة (وراء ظهورهم) نبذ من لا يعلم عنه شيئا (كأنهم لا يعلمون) أنه نزل عليهم مبالغة فى تركه وإهماله ، بل إنهم لم يتورعوا من ارتكاب ما هو أكبر من هذا وهو :

الطبع الثالث عشر من طبائعهم ، اللجوء إلى طرق غير مشروعة فى سبيل أغراضهم وقد تجلى هذا فى تعاطيهم السحر وما أشبهه فى سبيل مقاومة الدّين حيث قال تعالى (واتبعوا) فى هذه الحياة (ما تتلوا الشياطين) من الإنس والجن وتنسبه افتراء (على ملك سليمان) لأنهم كانوا يقرءون كتب السحر ويزعمون أن ملك سليمان ما قام إلا على هذا العلم الذى يخيل للناس أن للساحر قدرة على خلق الأجسام وإيجاد الحياة وترتيب الأشكال والعلم بالمغيبات وكل هذا كفر يبرأ منه سليمان ولذلك قال تعالى (وما كفر سليمان) لأنه لم يكن ساحرا وما عمل بالسحر قط (ولكن) أولئك (الشياطين) من نسل إبليس وأتباعه من الإنس والجن هم الذين (كفروا) بنسبة السحر إلى سليمان كذبا وزورا لأن هذا يعد إنكاراً لمعجزاته وجحودا لنبوته ، وزاد فى كفرهم أنهم صاروا (يعلمون الناس السحر) ليوهموا العامة أنهم قادرون على مالا يقدر عليه إلا الله ويحملونهم على التعلق بهم من دونه ويضلونهم عن سبيله (وما أنزل) ويعلمونهم أيضا ما أنزل (على الملكين ببابل) ببلدة بابل وقد كان أهلها قوما صابئين يعبدون الكواكب ويسمونها آلهة ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها فبعث الله ملكين هما (هاروت وماروت) فصار هذان الملكان يعلمان الناس حقيقة السحر ووسائل تأثيره وطرق إفساده ليعلم الناس الفرق بين المعجزة والسحر حتى يتمكنوا من معارضة الذين يدعون النبوة

كذبا وليفضحوا أسرار السحرة وليكشفوا للناس وجوه الحيل حتى لاينخدعوا بهم (وما) كان هذان الملكان (يعلمان) هذا العلم (من أحد) أى لأحد (حتى) يحذراه من العمل به ويفهماه بأن المقصود منه هو مجرد التحرز من السحر بل (يقولا) له صراحة (إنما نحن) بتعليمنا لهذا العلم (فتنة) لنرى إن كنت تعمل على مقاومة السحر وفضح أسراره أم تتوصل به إلى المفاسد والمعاصى (فلا تكفر) بالله ولا تستعمله فيما نهيت عنه (فيتعلمون منهما) مايروق لهم من ذلك وهو (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) ويستعملونه لهذا الغرض ويتصورون لأنفسهم قوة غيبية خفية يفعلون بها مايوهم الناس أنهم قادرون على ماهو فوق استعداد البشر (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) وفاتهم أنه إذا أصيب أحد من أعمالهم فإنما ذلك بسبب من الأسباب التى قضت به قدرة الله أن يكون له ذلك التأثير، فهذا السحر الذى يحسبون به لأنفسهم قدرة على محاكاة قدرة الله لايؤثر إلا بمشيئة الله وتخليته تعالى بينه وبين الضر وسوف لاينالهم من ورائه غير العذاب (و) هم به (يتعلمون مايضرهم) لأنه سبب للإضرار بالناس وهو محرم يعاقب عليه الله (ولا ينفعهم) لأن المنفعة التى تحصل منه يمحقها الله الذى أخبر بعدم نفعها (ولقد علموا) من التوراة أن عمل السحر كعبادة الأوثان (لمن اشتراه) وآثره على كتاب الله (ماله فى الآخرة من خلاق) فهو بذلك قد باع آخرته بدنياه بل باعها من غير ثمن وفى غير منفعة (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) حكمة تحريم السحر ويصدقون بما أوعد الله به مرتكبيه فى الآخرة من العذاب، إذاً لأدركوا مبلغ الخسران الذى لحقهم والعدوان الذى شملهم والنكاية التى أضرت بهم والتجارة المزجاة التى

خسروها بابتياعهم الهدى بالضلال والحق بالباطل والنور بالظلام، ولو أنهم التفتوا وتبصروا ماقدموا على مضرة أنفسهم (ولو أنهم) أى بنى إسرائيل (آمنوا) بالله ورسوله بدلا من هذا السحر واتباع نزغات الشياطين (واتقوا) عذاب الله باتباع أوامره والاقلاع عن كل ما لايرضيه من السحر وخلافه (لمثوبة) لنالوا ثواباً (من عند الله خير) من الطرق الغير مشروعة التى انتهجوها (لو كانوا يعلمون) ما يترتب على اتباعهم لهذه الطرق من الأضرار العظيمة التى ستعود عليهم بالدمار.

المغزى:

تدل هذه الآيات على ما يأتى:

(١) التحذير الشديد من ترك العمل بكتاب الله.

(٢) التحذير الشديد من تعاطى السحر والعمل به.

(٣) إن ماينسبه البعض إلى سيدنا سليمان من الطلاسم والعزائم وأعمال السحر لاصحة له وما هو إلا محض افتراء فالسحر كفر وما كان سليمان كافرا.

الحكم:

اتفق العلماء على تحريم تعاطى السحر وإن المال الذى يؤخذ على السحر أو بسببه يعد من أكل أموال الناس بالباطل، وأجمع علماء السلف على وجوب قتل الساحر لقوله صلى الله عليه وسلم «حد الساحر ضربة بالسيف» ونص بعضهم على كفره؛ وقال أبو حنيفة يقتل الساحر مسلما كان أو ذمياً دون المرأة فإنها تحبس وتضرب حتى يتيقن تركها السحر؛ وقال مالك

يقتل الساحر المسلم دون الذمى إلا إذا أضر بالمسلم، وقال الشافعى إن الساحر لا يعد كافراً فلا يقتل إلا إذا تعمد القتل بسحره وإلا فهو عاص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) .

اللفظ :

(تقولوا) تتلفظوا (راعنا) انظر إلينا ، وهى كلمة تستعمل عند اليهود للسباب وقرئ (راعونا) (انظرنا) راقبنا واجعلنا تحت نظرك وقرئ (أنظرْنا) أمهلنا (اسمعوا) اصغوا (الكافرين) الجاحدين (عذاب) كل ماشق على الإنسان (أليم) موجع (يود) يحب (أهل الكتاب) من أرسلت لهم الرسل (المشركين) الذين يعبدون مع الله إلها آخر (ينزل) يوحى (خير) ضد الشر (رب) مالك وسيد (يختص) يفرد (رحمته) عطف يقتضى الإحسان (يشاء) يرغب (الفضل) الابتداء بالإحسان بلا علة .

المعنى :

بعد أن نبه الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى طبائع بنى إسرائيل وأخلاقهم ، خاطب المؤمنين كافة ونبههم إلى سيئات الإسرائيليين ومطاعنهم ضد الإسلام ونوعها إلى أنواع :

النوع الأول : ما كان موجهاً إلى الإسلام فى شخص رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنهم كانوا يقولون له راعنا، وهى كلمة عبرانية أصلها «راعينو» أى شرير، ويقصدون بها الحط من قدره دون أن يشعر الصحابة رضوان الله عنهم بذلك حتى أنهم كانوا يخاطبونه بها أيضا، لأن معناها فى العربية انظر إلينا أولا تخرجنا من تحت نظرك ورعايتك فنهاهم الله عن التلفظ بهذه الكلمة حيث قال (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) فكان هذا بمثابة إلفات نظر المؤمنين بما يراد بهذه الكلمة عند اليهود ؛ حتى لقد روى : أن سعد بن معاذ قال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده لو أنى سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه (وقولوا) بدلا عنها المعنى المقصود حقيقة منها وهو (انظرنا) يارسول الله (واسمعوا) ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه (وللكافرين) الذين يقصدون النيل من مقام الرسول (عذاب أليم) إذا لم ينتهوا عن ذلك سراً وعلنا .

النوع الثانى : من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الإسلام ما كان موجها إليه فى شخص أتباعه ، وذلك أنهم كانوا يتظاهرون لهم بالود ويقولون وددنا لو كان دينكم خيرا مما نحن فيه لنتبعنه ، فحذرهم الله منهم بقوله (مايود الذين كفروا) بهذا الدين الإسلامى (من أهل الكتاب) من الإسرائيليين (ولا المشركين) من غيرهم (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) ولكن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليكم بأعظم الخيرات وهو القرءان لأنه النظام الكامل والهداية العظمى التى وحدت شعوبكم وهذبت نفوسكم وأعلت كلمتكم ورقت مداركم وأزالت الحقد والضغائن من بينكم (والله يختص برحمته من يشاء) من عباده (والله ذو الفضل العظيم) .

المغزى :

يحذر الله بالآية الأولى من وصف الرسول أو مخاطبته بأية عبارة قد تشعر بالامتهان لمقامه الشريف ولو كان ذلك فى لغة غير اللغة العربية ، كما يحذر بالآية الثانية من الانخداع بتظاهر غير المؤمنين لنا بالود فإنهم فى الواقع غير صادقين .

الحكم :

أخذ الامام مالك من هذه الآية حكما . هو وجوب تجنب الألفاظ المحتملة للتعريض والتنقيص والقذف مطلقاً وقال بأن ذلك ملزم للحد ، خلافاً للشافعى وأبى حنيفة حيث قالا بأن اللفظ المحتمل للقذف وغيره لا يوجب الحد لأن الحد يدرأ ويسقط بالشبهة. واستنتج الشافعى من منع المسلمين من التلفظ بكلمة (راعنا) والتصريح لهم بكلمة (انظرنا) عدم صحة الصلاة بترجمة الفاتحة سواء بالعربية أو الفارسية أو غيرها وجمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قول «راعنا» لأنها اشتملت على نوع مفسدة . ولذا قال أبو حنيفة بجواز قراءة الفاتحة باللغات الأخرى لمن عجز عن قراءتها بالعربية وصلاته صحيحة .

مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسٰى

مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) .

اللفظ :

(ننسخ) بفتح النون والسين وقرئ (ننسخ) بضم النون وكسر السين نبدل (آية) بعض جمل القرآن (ننسها) نزيلها من الذاكرة (نأت) نجىء (خير) اسم تفضيل مخفف أخير (مثلها) نظيرها (تعلم) تتيقن (ملك) السلطان والتصرف (ولى) حافظ ساهر على المصالح (نصير) معين على دفع الضرر والعدو (تريدون) تحبون (تسألوا) تطلبوا (يتبدل) يأخذ شيئا مكان شىء وقرئ (يبدلُ) (ضل) ضاع (سواء السبيل) الطريق القويم .

المعنى :

النوع الثالث : من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الإسلام ما كان موجها إلى كتابه الكريم ، وذلك أنهم كانوا يقولون ألا ترون محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ثم يرجع عنه غدا فأراد الله الرد على فريتهم وعلى طعنهم هذا بقوله (ما ننسخ من آية) أى نبدلها بآية أخرى (أو ننسها) بأن نأمر بعدم تلاوتها فتنسى ويبطل حكمها حتى (نأت بخير منها أو مثلها) أى إذا شددنا فى أمر لحالة تستدعى التشديد ثم أزيلت تلك الحالة فمن الحكمة أن نعمد إلى التخفيف ، وإذا تساهلنا فى أمر لظروف خاصة اقتضت ذلك ثم زالت تلك الظروف وجب أن نعدل إلى مافيه المصلحة والخير العام وذلك لحكمة تضمن تنفيذ الأحكام وإقامة الشرع على أكمل وجه (ألم تعلم)

يامن تستمع إلى تلك الاعتراضات على هذا النسخ والتبديل (أن الله على كل شىء قدير) أى أنه لو لم يكن فى النسخ والتبديل حكمة إلهية لما أعجزه أن يتحاشى ذلك (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) والمالك يتصرف فى ملكه كما يشاء والحاكم من واجبه أن يصدر الأحكام حسبما تقتضيه تطورات الأزمان وعقلية الأمم بتغير الأحوال فلا محل للاعتراض على نسخه لآية أو إبدالها بسواها. (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) أى لاتبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم عليه وحذار أن يستهويكم إنكاره فيضعف ذلك من إيمانكم واتقوا الله وحده ولا يهمكم من أمرهم شيئا (أم) داخلكم الريب من أقوالهم ولذلك (تريدون أن) تجاروهم فى ضلالهم و (تسألوا رسولكم) محمدا أسئلة تعجيز واختبار (كما سئل موسى من قبل) فتلحون فى طلب الحكمة لهذا النسخ أو بيان الأسباب الداعية له للتأكد من صحتها، وهذا يعد كفرا إذ الدين الإسلامى دين إيمان وتصديق وتسليم (ومن يتبدّل الكفر بالإيمان) ويأبى إلا الاعتراض والعنت (فقد ضل سواء السبيل) وكان ممن اتبع سنن اليهود فيما كانوا عليه.

المغزى:

تدل هذه الآيات على مايأتى:

(١) لايعيب القرآن وجود ناسخ ومنسوخ فيه، فذلك حق من حقوق الله وسنة من سننه فى وضع النظم والقوانين الوضعية بحسب ما تقتضيه الأحوال وتدعو إليه الحاجة.

(٢) أن الاعتراف بأن الله هو مالك الملك والكائنات بما فيها السموات والأرض لايتفق مع الاعتراض على شىء من تصرفاته.

(٣) لا يليق بمن يؤمن برسالة النبي أن يتردد في تقبل ما جاء به من الآيات بأنها من عند الله .

الحكم :

استنتج العلماء من هذه الآيات جواز نسخ حكم الآية مع بقاء التلاوة وهو كثير في القرآن كآية الوصية وآية العدة ، وجواز نسخ التلاوة مع بقاء الحكم كما ورد عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كان فيما نزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما) وقد نسخت التلاوة وبقي الحكم ، وجواز نسخ الحكم والتلاوة معا ، كما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان فيما نزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يحرّمن) ثم نسخت بآية أخرى (خمس رضعات معلومات يحرمن) فالآية الأولى منسوخة الحكم والتلاوة والثانية منسوخة التلاوة دون الحكم عند الشافعي ، ولا خلاف في أن القرآن ينسخ بالقرآن كما أن الخبر المتواتر ينسخ بمثله وخبر الآحاد بخبر الآحاد ، ولكن اختلفوا في جواز نسخ القرآن بغير القرآن فقال الجمهور بالجواز ، وقال الشافعي بعدم الجواز ولكل وجهته وحجته ودليله ويطلب من المطولات .

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) .

اللفظ :

(ودّ) أحب (يردونكم) يرجعونكم (إيمانكم) تصديقكم (كفارا) جاحدين (حسدا) الحسد تمنى زوال نعمة الغير (تبين) اتضح (الحق) ضد الباطل (اعفوا) تنازلوا عن عقوبتهم (اصفحوا) أعرضوا عنهم (أمره) حكمه (قدير) صاحب القدرة (أقيموا) داوموا على (الصلاة) الدعاء ويراد بها الحالة المخصوصة التى تبدأ بالتكبير وتختم بالتسليم (آتوا) أعطوا (الزكاة) ما يخرج من المال لتطهيره (تقدموا) تعجلوا إخراجها وقرئ (تقدِموا) (خير) كرم (تجدوه) تظفروا به (تعملون) تصنعون وقرئ (يعملون) (بصير) خبير.

المعنى:

النوع الرابع من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الإسلام ما كان موجها إليه فى حقيقته، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين بعد وقعة بدر: ألم تروا ما أصابكم من الهزيمة ولو كنتم على الحق وكان نبيكم مرسلا من عند الله وسائرا بأمره ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا، فنبه الله المؤمنين إلى مكرهم هذا بقوله (ودّ كثير من أهل الكتاب) الذين يضمرون البغض للاسلام من اليهود (لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا) بما يلقونه عليكم من المنطق الخداع الذى يحاولون به تشكيكم فى دينكم ويقصدون منه تسرب الشبه إلى نفوسكم (حسدا من عند أنفسهم) لأنهم كرهوا اعتناق الإسلام بباعث نفسى هو الحسد إذ هم يتوقعون عظمته وعلو شأن الداعين له، ومن أجل هذا كانت أمنيتهم فى الحياة انصرافكم عنه وزوال نعمته عنكم (من بعد ما تبين لهم) من انطباق ما جاء فى كتبهم من صفات النبى المنتظر على هذا النبى الكريم أن دينه هو الدين (الحق)

ولولا أنهم عرفوا أنه الدين الحق لما تمنوا زوال نعمته عنكم ولما عملوا على ذلك بإيقاع الشبه فى نفوسكم لترتدوا عن دينكم (فاعفوا) عن سيئاتهم ولا تحاولوا الانتقام منهم على ما قالوا طالما تبين لكم أن منشأ ذلك هو الحسد الذى يأكل نفوسهم، إذ الحسد آفة متمكنة من النفوس الدنيئة الضالة الضعيفة ولا قدرة لهم على ردها فلا ينبغى أن تؤاخذوهم عليه واتركوا أمرهم إلى الله (واصفحوا) أى لا تقابلوا مطاعنهم بمثيلاتها (حتى يأتى الله بأمره) بأن يزيل ذلك الحسد من نفوسهم أو يمدكم بنصره ويميتهم بغيظهم (إن الله على كل شئ قدير) وما ذلك عليه بعزيز (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وردوا عليهم ردًّا فعلياً يشعرهم بعدم اكتراثكم بأقوالهم وشدة تمسككم بدينكم بالصلاة والزكاة، فهذا خير جواب لهم من شأنه أن يرد كيدهم فى نحورهم (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى واعلموا أن كل ما تقدمونه لأنفسكم من خير سواء بالعفو والصفح وجميع أنواع ضبط النفس، أو بالقيام بواجب الطاعات المطلوبة منكم كالصلاة والزكاة سيجزيكم عليه الله الجزاء الأوفى (إن الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شئ من أسراركم وجهركم.

المغزى:

ينبه الله بهاتين الآيتين إلى ما يأتى:—

(١) أن عداء اليهود للاسلام ناشئ فى الأصل من الحسد فلا سبيل إلى زواله من قلوبهم.

(٢) إن الحسد من الأمراض النفسية التى تحمل المرء على بذل الجهود فى سبيل سلب النعمة عن المحسود وخير سلاح يوجه إلى صدر الحاسد هو المبالغة فى إظهار النعمة المحسود عليها.

الحكم :

حرمة الحسد ، وندب العفو والصفح عن الحاسد .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٢) .

اللفظ :

(هودا) جمع هائد ، والمراد اليهود (نصارى) أتباع المسيح (أمانى) مايتمناه الإنسان ، ويطلق أيضا على الكذب (هاتوا) أحضروا (برهانكم) حجتكم (صادقين) محقين فيما تدعون (بلى) حرف تصديق مثل نعم (أسلم) أخلص (وجهه) نيته (محسن) مجيد فى عمله (أجره) ثوابه (خوف) فزع (يحزنون) يتوجعون من الهم (يتلون) يقرءون (الكتاب) التوراة والإنجيل (يعلمون) يعرفون (يحكم) يقضى ويفصل (يوم القيامة) يوم البعث الموعود (يختلفون) يتنازعون .

المعنى :

النوع الخامس من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الإسلام ما كان موجها إليه فى مستقبل الإسلام والمسلمين ، وذلك ما كانوا يعرضون به نحو الإسلام ومصير المعتنقين له بما يصرحون به جهارا أمام المؤمنين وحكى الله ذلك عنهم بقوله (وقالوا) أى كل من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة) فى يوم القيامة (إلا من كان هودا أو نصارى) دون سواهم ويقصدون التعريض بالمؤمنين ، وقد رد الله على ذلك بقوله (تلك أمانيهم) يترجحون فيها أى إن تلك الدعوى لم تخرج عن كونها أمان باطلة لا تستند على شئ من الحقيقة ، ولأجل إقامة الحجة على كذبهم فى دعواهم قال تعالى (قل) لهم يا محمد (هاتوا برهانكم) على صحة ما تقولون (إن كنتم صادقين) فى دعواكم وإذا عجزوا عن تقديم البرهان ولأجل ألا ييأسوا من رحمة الله عند عجزهم قل لهم يا محمد أيضا (بلى من أسلم وجهه لله) وأخلص نيته بأن وحّده ولم يشرك به أحدا (وهو محسن) فى أعماله التى يتقرب بها إليه بأن تكون منطبقة على آخر شريعة أنزلت من عنده (فله أجره عند ربه) سواء كان من قبل يهوديا أو نصرانيا (ولا خوف عليهم) بسبب ما بدر منهم من قبل ، فالإسلام يجبّ ماقبله (ولا هم يحزنون) فى المستقبل على ما تخلوا عنه من آمال زائفة ثبت لهم بطلانها (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) أى بالرغم عن ادعائهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، فهم يتراشقون بالأقوال ويطعن كل منهم الآخر ويزعم أنه ليس على شئ يعتد به فى الدين الصحيح

(وهم يتلون الكتاب) ويعلمون منه أن الأديان جميعها إنما تدعو إلى إله واحد وأن ما فى الانجيل يؤيد ما فى التوراة ولا يناقضه فلا معنى للزعم بأنه لم يكن على شئ بالمرة (كذلك قال الذين لا يعلمون) من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل الأخرى (مثل قولهم) بأن جعلوا الملة جنسية زعموا أنها هى المنجية لكل من انطوى تحت لوائها ورضى باسمها ولقبها. والحق وراء هذا لا يتقيد بأسماء وألقاب وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وسوف يريهم سبحانه وتعالى من يدخل الجنة عيانا ومن يدخل النار عيانا، وحينئذ يظهر الصادق من الكاذب والحق من الباطل.

المغزى :

تدل هذه الآيات على أن الله يكره من الناس ما يأتى : —

(١) جعل الأديان جنسية يفرض لمعتنقيها الجنة.

(٢) الطعن فى الأديان من حيث هى أديان.

الحكم :

يحرم الكذب والافتيات على الله، بالتحكم فى مصير الأمم والأفراد فى الحياة الأخرى من غير دليل ولا برهان.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَٰجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ،

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) .

اللفظ :

(أظلم) أكثر جورا وانتقاصا للحق (منع) حال دونها (يذكر) يمجد (سعى) عمل (خرابها) عدم عمارها (خائفين) فزعين (خزى) ذل وإهانة (عذاب) كل ما شق على الانسان (عظيم) شديد (المشرق) جهة شروق الشمس (المغرب) جهة غروب الشمس (تولوا) تستقبلوا (ثم) اسم يشار به إلى البعيد بمعنى هناك .

المعنى :

النوع السادس : من سيئات بنى إسرائيل ضد الاسلام ما كان موجها إلى قبلته ، وذلك أنه لما حولت القبلة عن بيت المقدس التى كانت قبلة بنى إسرائيل من قبل إلى الكعبة المشرفة شق ذلك عليهم فكانوا يمنعون الناس من الصلاة عند توجههم إلى الكعبة ولعلهم سعوا أيضا إلى تخريب الكعبة وسعوا أيضا فى تخريب مسجد الرسول لئلا يصلوا فيه متجهين إلى القبلة ، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم حيث قال (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) من (أن يذكر فيها اسمه) أى عمل على منع الناس من التعبد فيها (وسعى) بذلك فى خرابها ، لأن منع الناس من التعبد فيها أكبر تخريب لها ، فعمارة المساجد إنما تكون بالعبادة لا بالبناء والتجصيص (أولئك) أى كل من صدر منه ذلك الأمر (ما كان لهم أن يدخلوها) أى تلك المساجد (إلا خائفين) من الإخراج بمعنى أنه لا ينبغى أن يمكنوا من الدخول إليها والاطمئنان فيها

(لهم فى الدنيا خزى) بعلوّ كلمة الله فى المساجد رغم أنوفهم (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) عقابا لهم على صد الناس عن المساجد (ولله المشرق والمغرب) أى الأرض جميعها من شرقها لغربها له سبحانه وتعالى (فأينما تولوا) أى فأيما جهة تولونها (فثمّ وجه الله) فى الواقع ونفس الأمر ولكنه بالنظر لأن وجه الله منزه عن المادة والجهة ، واستقباله بهذا المعنى مستحيل فقد عين سبحانه وتعالى للناس مكانا مخصوصا وشرع لهم استقباله فى عبادتهم إياه فمن الواجب عليهم الاتجاه إليه وما يكون لهم حق الاعتراض عليه ولا تخريب المساجد من أجله (إن الله واسع) لا يحدد ولا يحصر (عليم) بالمتوجه إليه أينما كان ، أى فاعبد الله حيثما كنت وتوجه إليه أينما حللت .

المغزى :

تدل هاتان الآيتان على ما يأتى : —

(١) إن من أشد المظالم منع الناس من عبادة الله فى بيوته ووضع العراقيل فى سبيلها .

(٢) إن من يحمل على تخريب مساجد الله بصد الناس عنها لا ينبغى أن يمكن من الدنوّ منها .

الحكم :

يحرم صد الناس عن المساجد وتخريبها . واستنتج الامام مالك من قوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) وجوب منع الكافرين من دخول المساجد . وقال الشافعى : إن المراد من المساجد

المسجد الحرام ، فحصر المنع بالحرم والمسجد الحرام فقط دون باقى المساجد . وقال أبو حنيفة : إن الجملة خبرية فلا يلزم منها وجوب منعهم من دخول المساجد ، واستنتج الجميع من الآية الثانية الحكم بالتخيير فى الاتجاه إلى أى جهة وقالوا إن هـــذا الحكم منسوخ بقوله تعالى : «فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره» إلا فى صورتين . إحداهما : صلاة التطوع على الراحلة . وثانيتهما : الصلاة فى السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو لغيرها ، وأما على غير هاتين الصورتين فلا تخيير وهناك تفصيل فى المذاهب .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ . بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) .

اللفظ :

(وقالوا) تحدثوا وقرئ (قالوا) بغير واو (اتخذ) صير (ولدا) يطلق على الذكر والأنثى والجمع (سبحانه) مصدر : بمعنى أنزهه وأبرئه من ذلك (قانتون) ملازمون للعبادة وطاعة الله (بديع) موجد على غير سبق مثال (قضى) قدّر (أمرا) شيئا (كن) صر (فيكون) فيصير ، وقرئ (فيكونَ) بالفتح .

المعنى :

النوع السابع : من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الاسلام وقد تبعهم فيها غيرهم من النصارى والمشركين ـ ما كان موجها إلى أساس

عقيدة التوحيد حيث أنكروا قوله تعالى « لم يلد ولم يولد » واعتقدوا غير هذا (وقالوا اتخذ الله ولدا) زعم اليهود أنه عزير ، وزعم النصارى أنه المسيح ، وزعم بعض مشركى العرب أنه الملائكة وبنوا على ذلك حبهم لهم وتمجيدهم كتمجيد والدهم على زعمهم ودعائهم لقضاء المصالح وفى النائبات ، فرد الله على زعمهم بقوله (سبحانه) أى هو أجلّ من هذا ، لأن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه فى بعض المواقف وتؤمل منه المساعدة فى حال عجز الأب عن بعض أموره ، والله منزه عن كل هذا (بل له ما فى السموات والأرض) ملكا وخلقا ومن جملة ذلك من زعموه ولدا لله كعزير وعيسى والملائكة (كل له قانتون) وهذا دليل على العبودية لا البنوة . يحكى عن على بن أبى طالب أنه قال لبعض النصارى : لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه ، فقال النصرانى كيف تجوّز نسبة ذلك إلى عيسى مع جده فى طاعة الله ، فقال رضى الله عنه إذا كان عيسى إلها كما تقولون فالإله كيف يعبد غيره ؟ إنما العبد هو الذى تليق به العبادة ، فأسقط فى يده ولم يحر جوابا والله أعلم (بديع السموات والأرض) وإنما كان له ما فى السموات والأرض ، لأنه هو الخالق المبدع لها ولجميع ما فيها من أخضر ويابس وحيوان وغير حيوان ، ولا يحتاج فى إدارة كل ذلك إلى من يعينه على أمر من الأمور ، إذ الكل طوع إرادته (وإذا قضى أمرا) فهذا لا يكلفه عناء فى التفكير أو فى اتخاذ الوسائل ، بل إنه بمجرد تعلق إرادته به (فإنما يقول له كن فيكون) فيحصل فى نفس اللحظة التى يعينها سبحانه وتعالى .

المغزى :

يحذر الله بهاتين الآيتين من مجاراة اليهود فى مزاعمهم التى دخلت

على من بعدهم من النصارى ومشركى العرب حيث اتخذوا لله أبناء يحبونهم كحبه ويمجدونهم كتمجيده ويلجئون إليهم فى الشدائد وينتظرون منهم قضاء الحوائج ، وجاء الإسلام يحارب هذه الفكرة من أساسها ويأبى على الناس تقديس الأولياء والصالحين بل والأنبياء والمرسلين كتقديس الله وتوجيه الدعاء لهم كدعائهم له .

الحكم :

يجب تنزيه الله عن أن يكون له ولد . واستنتج العلماء من نفى البنوة لله بثبوت ملكيته لما فى السماء والأرض حكما هو عتق الولد إذا ملكه أبوه ، وقضى النبى صلى الله عليه وسلم بعتق الوالد إذا ملكه ولده .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) .

اللفظ :

(يعلمون) يعرفون (يكلمنا) يحدثنا (تأتينا) تجيئنا (آية) علامة (تشابهت) تماثلت ، وقرئ (تشّابهت) بتشديد الشين (بينا) أوضحنا (يوقنون) يتثبتون (الحق) اليقين (بشيرا) ناقلا الخبر السارّ (نذيرا) محذرا من الخطر (تسئل) يطلب منك الإجابة ، وقرئ (ولا تسأل) (أصحاب) ملازمين (الجحيم) كل نار شديدة اللهب .

المعنى :

النوع الثامن : من سيئات بنى إسرائيل ومطاعنهم ضد الإسلام وقد تبعهم فيها غيرهم من المشركين ، ما كان موجها إلى الدعوة الإسلامية وذلك بالتشكيك فى دعوة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ومطالبته فى كل يوم بمختلف المعجزات ، وقد أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله (وقال الذين لا يعلمون) حقيقة التوحيد والنبوة من اليهود وغيرهم (لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) وقال فى آية أخرى « يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء » ومعنى هذا أنهم يريدون الاتصال بالبارئ جل وعلا مباشرة ومن غير واسطة رسول لعدم ثقتهم بجميع الآيات الدالة على رسالة هـذا النبى الكريم ، بل هم يريدون آية يختصون بها (كذلك قال الذين من قبلهم) من آبائهم الأولين (مثل قولهم) تعنتاً حيث قالوا لموسى «أرنا الله جهرة» (تشابهت قلوبهم) فى القسوة ولذلك كانت أسئلتهم وطلباتهم متحدة ، فقال تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى إن الآيات التى أنزلناها وبيناها كافية لمن خلصت نيته وطلب الإقناع لحصول اليقين، أما من جبل على العناد واستمر على المكابرة فسوف لا يعدم مختلف الأسئلة ، ولا سبيل إلى إقناعه لأنه لا يريد أن يقتنع وإنما يقصد التعنت والتعجيز ، فكلما أجيب على مطلب فكر فى خلق وابتداع مطلب سواه وهكذا دواليك ، وسوف لا يرضيه شئ بالمرة (إنا أرسلناك بالحق) أى بالعقائد الصحيحة المقبولة عند كل ذى عقل سليم والمتجافية عن كل خرافة وتخيل، لتكون (بشيرا) للطائعين بحسن الثواب (نذيرا) للمعاندين والعاصين بسوء المصير (ولا تسئل)

يا محمد (عن أصحاب الجحيم) أى فلا يسؤك تكذيب المكذبين الذين ارتضوا لأنفسهم بعد أن أوضحت لهم سبيل الجنة والنار أن يكونوا من أصحاب الجحيم .

المغزى :

تدل هاتان الآيتان إلى سنة من سنن الله فى خلقه ؛ هى أن من شأنه التشكك وطبعه العناد والمكابرة لا سبيل إلى إقناعه بالحق ولا ترجى هدايته وإنما تحصل الهداية لمن طلب معرفة الدليل ليقنع بالحق عن يقين .

الحكم :

يحرم التشكك فى آيات الله ومعجزات الرسل .

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٢١) .

اللفظ :

(ترضى) تقنع (تتبع) تنقاد (ملتهم) شريعتهم (هدى) البيان (أهواء) إرادة النفس وميلانها إلى ما ترتاح إليه (جاءك) أتاك (العلم)

إدراك الشيء على حقيقته (ولى) كل من ولى أمرك (نصير) معين (آتينا) أعطينا (يتلون) يقرءون (حق تلاوته) على حقيقته (يؤمنون) يثقون (يكفر) يجحد (الخاسرون) الذين أضاعوا أعمالهم .

المعنى :

بعد أن عدد الله نعمه على بنى إسرائيل وبين ما هم عليه من أخلاق وطبائع ، وما اقترفوه من سيئات ومطاعن ضد الإسلام لا تدع مجالا للطمع فى إيمانهم ختم البحث بقوله (ولن ترضى عنك) يا محمد (اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) والخلاصة أن اليهود والنصارى سوف لا يرضيهم منك شيء مهما حرصت على إرضائهم إلا أن تتبع ملتهم ، وهذا مالا يمكن أن يكون ، لأن مهمتك فى الحياة إنما هى إصلاحهم وهدايتهم لا العمل على إرضائهم ، إذن (قل) يا محمد لمن حاول مفاحمتك وإعجازك من اليهود والنصارى (إن هدى الله) الذى أدعو إليه (هو الهدى) الصريح الذى أنزل من عند الله وهو بين أيديكم فإن اتبعتموه فلكم أجركم وإلا فعليكم يقع وزركم (ولئن اتبعت أهواءهم) أى ولئن حاولت أن تجاريهم فى الأخذ والرد والإجابة على كل سؤال يوجهونه إليك بالمطالبة بمعجزة تؤيد رسالتك (بعد الذى جاءك من العلم) بحقيقة أمرهم وأنه لاطمع فى إيمانهم وأنهم لن يرضوا عنك إلا أن تتبع ملتهم (مالك من الله من ولى ولا نصير) فشأنك وشأنهم ، لأن الله سوف لا يتولى تأييدك فى تحقيق ما يطلبونه منك ولا ينصرك عليهم بإقامة الحجة بالطرق التى يريدونها ، وكن على ثقة بأن (الذين آتيناهم الكتاب) وهو القرءان وآمنوا بأنه من عند الله (يتلونه حق تلاوته) أى من شأنهم وواجبهم أن يحرصوا على تلاوته حق تلاوته بأن يدرسوه ويتدبروا أحكامه ولا يتقيدون فى ذلك برأى لا يدل

عليه القرءان ولا يتأولون كلمة صريحة أو معنى واضحا (أولئك) هم الذين يملأ الله قلوبهم بالهدى ويشع عليهم النور الإلهى أثناء تلاوتهم لآياته لأنهم (يؤمنون به) حقاً بعد علم ويقين، وللقرءان تأثير فى النفوس فعال لا يحصل من سواه، أما الذين لا يتلونه حق تلاوته ولا يدركون معناه ولا يتذوقون حلاوة طلاوته ولم يقفوا على كنهه ومرماه لأنهم لا يرون الحاجة إليه فشأنهم شأن الكافرين (ومن يكفر به) ممن يتصور أن القرءان إنما أنزل لمجرد التعبد بتلاوته فقط فلا يحرص على تدبر معانيه والعمل بأحكامه (فأولئك هم الخاسرون) الذين أضاعوا أوقاتهم فى تلاوة القرءان دون الحصول على ثمراته التى من أجلها نزل وهى التى وضحها لنا الله بقوله: «ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب».

المغزى:

تدل هذه الآيات على ما يأتى: —

(١) أن العداوة الدينية متأصلة فى النفوس متمكنة فى القلوب لا يرضى صاحبها بغير ما يتدين به.

(٢) أن البحوث فى شأن العقائد الثابتة والأمور الدينية والتعبدية المحضة مع المتشككين المتعنتين قد ينتج عكس الغاية المطلوبة فيجب التسليم بأمرها من غير تعليل لها.

(٣) أن القرءان حجة قائمة على من يتخذه ويتلوه لمجرد التعبد دون التدبر والعمل به.

الحكم:

(١) لا يجوز الدخول مع اليهود والنصارى فى جدل دينى لا طائل تحته.

(٢) يجب تدبر القرءان عند تلاوته.

يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ ابْتَلٰى إِبْرٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظّٰلِمِينَ (١٢٤) .

اللفظ :

لقد سبق معنى الآيتين الأولى والثانية عند ذكر الآية ٤٧ و ٤٨ من هذه السورة (ابتلى) اختبر، وقرئ (ابتلى إبراهيمُ ربَّه) أى دعاه، وقرئ (إبراهام) (كلمات) ألفاظ ووصايا (أتمهن) أمضاهن على أكمل وجه (جاعلك) مصيرك (الناس) اسم وضع للجمع واحده إنسان (إماما) من يؤتم ويقتدى به (ذريتى) ولد الإنسان ونسله ، وقرئ (ذِريتى) بكسر الذال (لاينال) لايعطى (عهدى) وفائى وضمانى (الظالمين) كل من يضع الشىء فى غير محله، وقرئ (الظالمون) .

المعنى :

بعد أن منع الله نبيه من مجاراة اليهود والنصارى فى طلباتهم وأمره أن يقول لهم « إن هدى الله هو الهدى » عاد يبين له وسيلة أخرى من وسائل الدعوة المشروعة حيث خاطب بنى إسرائيل بأسلوب آخر

فيه شيء من الترغيب ونوع من التأثير فذكرهم بنعمة من نعمه التى مرت من قبل حيث قال (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون) وقد سبق شرحهما من قبل فى آيتى ٤٧ و ٤٨ .

ولما كان إبراهيم عليه السلام رجلا يعترف له بالفضل فى جميع الطوائف والملل وكان اليهود والنصارى والمشركون جميعا يتشرفون بالانتساب إليه أراد سبحانه وتعالى أن يبين لليهود السر فى فضله وعظمته وما قطع الله له من وعود سابقة ، ربما كان فى ذكرها ما يحضهم على الاقتداء به فى ثباته وعمله وقوة نفسه فعدد أسبابا جاء فى مقدمتها قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أى واذكروا إذ اختبر إبراهيم ربه اختبارا سريا بكلمات ألقاها سبحانه وتعالى عليه ولكنه لم يبح بها لنا ، ولعلها تتعلق بأمور نفسية خلقية : كالثبات على المبدإ وعظيم الإيمان وقوة النفس ووافر التضحية (فأتمهن) أى فأداها حقها وبرع فيها براعة منقطعة النظير ، وتكاد تكون فوق طاقة البشر حيث جاهد فى سبيل معرفة الله أعظم جهاد وآمن بالله عن طريق آياته الكونية وعمل على نشر الدعوة إلى التوحيد ولم يعبأ فى ذلك بأبيه وقومه وهو وحيد لا ناصر له ولا معين ، واستطاع أن يملك نفسه ويصونها من الخوف من غير الله حتى وهو بداخل النيران ، وعمل على إرضاء ربه حتى بذبح ثمرة قلبه إسماعيل لمجرد رؤية منامية خطرت له لولا أن فداه الله بالذبح العظيم ، فلا غرو إذا ما نال تقدير العزيز العليم (قال) الله له (إنى جاعلك للناس إماما) قدوة صالحة للبشر كافة ومثلا عاليا

فى الثبات والإيمان والصبر والتضحية والجهاد فى سبيل الله بل وفى كل الأخلاق الفاضلة والأعمال المجيدة (قال) إبراهيم (ومن ذريتى) أى واجعل اللهم من ذريتى أيضا من يخلفنى ويكون القدوة الصالحة للناس من بعدى على مدى الأزمان (قال لا ينال عهدى الظالمين) فأجابه الله بأن هذا الأمر لا ينال إلا عن جدارة واستحقاق، فمن عمل بعملك وسار على منهاجك كان أهلا لأن ينال ما نلت، ومن حاد عن طريقك وكان من الظالمين فلا يمكن أن يتبوأ مركزك فيكون قدوة للناس فى هذه الحياة .

المغزى :

ينبه الله بنى إسرائيل بأن السر فى عظمة إبراهيم هو ما كان عليه من قوة الإيمان وكمال الطاعة وعظيم الإرادة ووافر التضحية، وقد قضت سنة الله فى خلقه أن مثل هذه الصفات من شأنها أن تكسب صاحبها الرفعة وحق الزعامة وبالعكس، فإن التجرد من مثل هذه الصفات مما يدعو إلى التأخر ويوجب الذلة والهوان .

الحكم :

(١) يجب تذكر نعم الله وشكرها .

(٢) يجب الخوف من الله وتذكر الآخرة .

(٣) يجب أخذ العظة من مواقف إبراهيم المشرفة .

(٤) استنتج العلماء من قوله تعالى (لا ينال عهدى الظالمين) حكما هو أنه يشترط فى الإمام أن يكون عادلا، وأن الظالم لا يجوز أن يولى أمور المسلمين، ولا تجب طاعته، ولا تنفذ أحكامه، ولا تقبل شهادته ولا فتياه، ولا يقدم للإمامة فلا يؤتم به .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) .

اللفظ :

(جعلنا) صيرنا (البيت) البيت الحرام (مثابة) مجتمع الناس وقرئ (مثابات) (أمنا) اطمئنانا (اتخذوا) بكسر الخاء على صيغة الأمر : صيروا ، وقرئ (اتخذوا) بفتح الخاء على صيغة الماضى بمعنى جعلوا (مقام إبراهيم) الصخرة التى كان يقوم عليها عند بناء الكعبة (مصلى) موضع الصلاة (عهدنا) أوصينا (طهرا) نزها (بيتى) بفتح الياء الأخيرة ، وقرئ (بيتْ) بإسكانها المكان التى نسبه الله إليه (الطائفين) الدائرين حول البيت (العاكفين) اللابثين فى المسجد (الركع السجود) المصلين .

المعنى :

الثانى من فضائل إبراهيم تطهيره البيت الحرام من كل ما لا يليق بكرامته حيث قال تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) أى واذكر أننا اتخذنا بيتا لنا نسبناه إلينا لأجل أن يكون موردا يرجع الناس إليه كلما أرادوا الوصول إلينا أو النزول بساحة كرمنا لقضاء حوائجهم ولتحقيق رغائبهم (وأمنا) لكل لاجىء من أمر دهاه أو عائذ من ذنب اقترفه وأتاه ، فمن جاءه ملتجئا خاضعا تائبا راجيا عفو ربه واثقا

بقدرته على إعطائه ما يريد وتأمينه مما يخاف بلغناه مناه ويسرنا له من السبل ما يجعل له من أمره فرجا ومخرجا (واتخذوا) أى أمرناهم أن يجعلوا (من مقام إبراهيم مصلى) يقفون حوله ويتجهون اتجاهه لأداء عبادتهم ورفع دعواهم (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بـ (أن طهرا بيتى) أى استبعدا منه ومن حوله كل ما لا يليق أن يكون بجواره من الرجس الحسى والمعنوى كالأصنام وعبادة غير الله، والمراد بالبيت المكان الذى نسبه الله إليه وسماه بيته وأمر الناس بالتوجه إليه لحكمة عظمى: هى أنه لما كان البشر لا يتيسر لهم ولا يمكنهم التوجه إلى موجود غيبى مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر فى جهة سهل الله لهم سبيل ذلك بأن جعل فى هذا المكان رمزا ومقصدا يمكن حصر الاتجاه إليه والوقوف فى فنائه لطلب الرحمة والرضوان ، ومن أجل هذا جعله الله مثابة للناس وأمنا وكعبة (للطائفين) حولها (والعاكفين) الجالسين والقائمين بجوارها (والركع السجود) من المصلين ، وأمر نبيه إبراهيم أن يطهره لهؤلاء حتى يستطيعوا أن يؤدوا عباداتهم بكل حرية آمنين على أنفسهم ودمائهم وأموالهم .

المغزى :

ينبه الله بنى إسرائيل إلى أن هذا البيت الذى لا يريدون التوجه إليه هو الذى اختاره الله ليكون مثابة للناس وأمنا ، وأن إبراهيم هو الذى تولى تطهيره من الأصنام بأمر ربه وتوجه إليه فى صلاته ، وكان الناس فى عهده يصلون حول مقامه ويتجهون كاتجاهه ويتعبدون فى تلك الجهة كعبادته وقد اتبعه رسول الله فى هذا وتلا هذه الآية (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

الحكم :

حرمة ترويع الآمنين فى الحرم ، ووجوب تسهيل مهمة الطائفين والعاكفين والمصلين ، وندب الصلاة حول مقام إبراهيم وفى المواضع التى صلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم قياسا على ذلك .

وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) .

اللفظ :

(اجعل) صير (ارزق أهله) أوصل إليهم الرزق (الثمرات) طرح الشجر (كفر) جحد (أمتعه) بفتح الميم، وقرئ (أمتعه) بسكونها أصيره يلتذ وينتفع (أضطره) الاضطرار : فعل الشىء بعامل مؤثر لايقاوم (عذاب النار) آلامها (بئس) فعل ماض جامد للذم (المصير) نهاية الشىء .

المعنى :

الثالث من فضائل إبراهيم أنه عندما علم بأن الله جلت قدرته قد جعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا دعا ربه أن يكون للبلد الذى يحيط بالبيت حرمته وقدسيته وأن يكون لأهله الساكنين إلى جواره ميزة

فى الرزق تحببهم الإقامة فيه حيث قال (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا) من رجس الأصنام وعبادة الأوثان حتى تخرج الناس من غياهب الشرك وبواعث التفرقة والزيغ وتتجه إلى بيتك الحرام وحده (وارزق أهله من الثمرات) ثمرات كل شىء ينتفع به مما هم فى حاجة إليه فى الدنيا، ويدخل ضمن ذلك زيارة خيار الناس لهم الذين يعدون فى بنى الإنسان بمثابة الثمرات، وفى الآخرة بتمتعهم بنتائج عباداتهم (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) أى وخص اللهم بهذه الميزة المؤمنين منهم دون الكافرين (قال) الله تعقيبا على دعوته (ومن كفر) منهم سوف لا أحرمه من نعمة الرزق فذلك من حقه فى الحياة ولكنى أرزقه (فأمتعه) فى الحياة الدنيا فقط (قليلا) إذ أن متاع الدنيا قليل (ثم أضطره إلى عذاب النار) أى أسوقه يوم القيامة إلى عذاب النار سوقا اضطراريا لا اختيار فيه نتيجة ما قدمت يداه فى الدنيا وجزاء على الكفر عملا بسنة الله فى خلقه التى تقضى بأن لأعمال البشر الاختيارية غايات وآثار اضطرارية تنتهى إليها كارتباط الأسباب بالمسببات (وبئس المصير) أى وحسبه جزاء أن يكون هذا مصيره فى الآخرة.

المغزى:

ينبه الله بنى إسرائيل إلى أن هذه البلدة التى فيها قبلة الإسلام اليوم قد تطهرت عن الأصنام وتيسر أمر الاتجاه إليها والمعاش فيها للناس بسر دعوة إبراهيم.

الحكم:

وجوب إقصاء المعابد غير الإسلامية عن أرض الحرم.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩).

اللفظ :

(يرفع) يعلى (القواعد) الدعائم والأسس (البيت) الكعبة (ربنا) مربينا ومالكنا (تقبل) ارض عن عملنا (السميع) الثابت له صفة السمع (العليم) الثابت له صفة العلم (اجعلنا) صيرنا (مسلمين) المسلم المنقاد الطائع، وقرئ (مسلمين) بصيغة الجمع (أرنا) بكسر الراء وقرئ (أرْنا) بإسكانها: علمنا (مناسكنا) أعمال العبادة (تب) حل بيننا وبين المعصية (التواب) كثير التوبة (الرحيم) الثابت له صفة الرحمة (ابعث) أرسل (رسولا) من يبلغ الأوامر (يتلوا) يقرأ (آياتك) الجمل من القرءان (يعلمهم) يفهمهم (الكتاب) المنزل من عند الله (الحكمة) صواب الأمر وسداده (يزكيهم) يطهرهم (العزيز) الذى لا يغالب (الحكيم) العالم بحقائق الأمور.

المعنى :

الرابع من فضائل إبراهيم أنه عندما علم بأن الله قد اتخذ له فى هذه

البقعة المشرفة بيتاً يرجع الناس إليه عمل على بناء قواعده لئلا يخفى موضعه وتلتبس حدوده وتتلاشى آثاره ، فسجل الله له هذا العمل الصالح حيث قال (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) للدلالة على موضعه وضبط حدوده (وإسماعيل) وكان يعينه فى أمر البناء ابنه اسماعيل ، وكانا يدعوان الله فى أثناء البناء بثلاث دعوات :

الأولى (ربنا تقبل منا) عملنا هذا ، وهو رفع القواعد من البيت بالنسبة لما نقصده من تعيينه للناس كى يتوجهوا إليك (إنك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بأعمالنا المطلع على مقاصدنا .

الثانية هى (ربنا واجعلنا مسلمين لك) مستسلمين منقادين لك دون غيرك راضين بما توجبه علينا (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) واجعل من ذريتنا أمة مسلمة ، تصدق بكل ما يخبرها به رسلك من أسرار غيبك ، وتأتمر بما يأمرونها به وتنتهى عما ينهونها عنه (وأرنا منا سكنا) ما تريد فرضه علينا من العبادات التى ترضيك عنا (وتب علينا) وفقنا للتوبة من كل ذنب اقترفناه (إنك أنت التواب) ملهم التوبة ومقدرنا عليها (الرحيم) مصدر الرحمة والإحسان .

الثالثة هى (ربنا وابعث فيهم) أى فى ذريتنا عند ما يكثرون (رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك) الدالة على وحدانيتك وصدق رسلك (ويعلمهم الكتاب) الذى ينزل عليه وهو القرءان (والحكمة) التى يعلمون بها أسرار الأحكام الدينية ومقاصدها ، وهى التعاليم المحمدية (ويزكيهم) يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة والعادات السيئة بما يطبعه فيها من حسن الخلق وعلو النفس وحب الخير (إنك أنت العزيز) الذى لا يعجزه شىء (الحكيم) الذى لا يخفى عليه شى مما كان أو يكون .

المغزى :

ينبه الله بنى إسرائيل بهذه الآيات إلى ما يأتى :—

(١) أن هذا البيت الذى يأبون الاتجاه إليه قد بنى قواعده إبراهيم وإسماعيل دلالة للناس على بيته الذى اختاره لأن يكون قبلة المسلمين .

(٢) أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان طلبا من الله إيجاد أمة مسلمة .

(٣) أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان طلبا من الله أن يرسل لهذه الأمة رسولا من نسلهما لا من ذرية إسحاق، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى » .

(٤) إن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان طلبا من الله وضع أسس ودعائم الأمة الإسلامية التى تتلخص فى تلاوة الكتاب وتبليغه وتعليمه للناس وإرشادهم إلى ما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ، وتطهير نفوسهم بمكارم الأخلاق وحب الخير والإحسان .

الحكم :

وجوب تقدير العاملين لصدق أعمالهم والإقرار بالفضل لذويه .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنٰهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ (٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصّٰى بِهَا

إِبْرٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ ، إِنَّ اللهَ اصْطَفٰى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) .

اللفظ :

(يرغب عن) يعرض عن (ملة) شريعة (سفه) بكسر الفاء ، وقرئ «سفه» بتشديد الفاء ، والسفه : بذاءة اللسان وسوء الخلق (اصطفيناه) اخترناه (الصالحين) القائمين بما يجب عليهم (أسلم) انقاد (ووصى) وقرئ (وأوصى) أمر (يعقوب) بضم الباء ، وقرئ بفتحها عطفا على بنيه وهو ابن اسحاق بن إبراهيم .

المعنى :

بعد أن أخبر الله بنى إسرائيل بأن إبراهيم ذلك الرجل المحبوب عند الجميع والذى يسرون هم بالانتساب إليه هو الذى بنى قواعد البيت ، وهو الذى دعا بإيجاد أمة مسلمة وبعثة نبى من نسل إسماعيل «وهذا أمر لا بدّ وأنهم على علم من صدقه من كتبهم السابقة ولولا ذلك لكذبوه ونقل إلينا خبره» قال فى صراحة (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) أى ومن من الناس لا يرضى بملة ارتضاها لهم إبراهيم ودعا لتأييدها ذلك الرجل الحكيم الذى نال من ربه شرف الإمامة للبشر كافة لثباته على دينه ونشر دعوته ، وقوة إرادته فى نفسه لإرضاء ربه ، لا يمكن أن يرفضها ويعرض عنها (إلا من سفه نفسه) من حكم على نفسه بالسفه والحماقة ، لأنه لو لم يكن كذلك واعتقد فى نفسه العلم والرشد لبحث الأمر وتدبر هذا القرءان وقابل بين تعاليمه وما دعا به

إبراهيم فإذا وجدها مطابقة للقرءان اتبعه وآمن به وإلا فلا. وأما الرفض لأول مرة ومن غير تدبر فتلك حماقة وسفه مستحكم (ولقد اصطفيناه) أى إبراهيم (فى الدنيا) وجعلناه قدوة للناس كافة وجعلنا فى ذريته الكتاب والنبوة (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وهذه شهادة أخرى من ربه له فما يكون لأحد بعدها أن يرغب عن ملته، وحسبه نبلا ما كان منه (إذ قال له ربه أسلم) أى بما أراه من الآيات الكونية التى أرشدته إلى وجود رب واحد منفرد بالخلق والتدبير، وحاجه قومه فبهرهم بفصاحة بيانه وقوة حجته وأدلته (قال أسلمت لرب العالمين) أى إنه عند ما ألقى نظره إلى هذه الكائنات الدالة على عظمة خالقها سمعها كأنها تنادى وتدعوه إلى الإسلام فلم يتردد أن قال «أسلمت لرب العالمين» وعمل على نشر الدعوة للإسلام إلى آخر لحظة من حياته (ووصى بها) أى بكلمة «أسلمت لرب العالمين» (إبراهيم بنيه) أى ووصى بنيه بالتمسك والمحافظة على ما يقتضيه مدلولها من الانقياد التام والطاعة المطلقة والتسليم لله من غير ريب ولا تردد (ويعقوب) أى وكذلك وصى إبراهيم بها مع بنيه نافلته يعقوب على قراءة من نصب يعقوب فإنها أوفق لأنه قد نص على ذكر وصية يعقوب لأبنائه فيما بعد (يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) هذه هى وصية إبراهيم لبنيه ونافلته يعقوب بأن يكونوا ملازمين للدين فى كل لحظة فإن المرء لا يأمن من القضاء فى كل طرفة عين.

المغزى:

يبين الله لبنى إسرائيل ما يأتى: —

(١) إن من الخطل فى الرأى والسفه فى الفهم أن يعرض المرء عن ملة لا علم له بحقيقتها ولا بتعاليمها ولم يقف على كنهها .

(٢) أن سرعة عظمة إبراهيم واصطفاء الله له جاءته من ناحيتين :

الأولى : لأنه أسلم وجهه لله بعد جهاد عظيم بمعرفة ربه عن طريق أسرار الكائنات وعجائب المخلوقات .

الثانية : لأنه حافظ على دينه وعمل على تنفيذ تعاليم ربه لآخر لحظة فى حياته ووصى أبناءه بتأييد دعوته وإعلاء شأن شريعته من بعده .

الحكم :

وجوب اتباع ملة إبراهيم والتمسك بوصيته والاقتداء به فى وصية الأبناء بالمحافظة على الدين الإسلامى .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) .

اللفظ :

(شهداء) حاضرين (حضر) جاء ، وقرئ بكسر الضاد (الموت)

إزهاق النفس (تعبدون) تدعون وتعظمون (إلهك) معبودك (إله آبائك) وقرئ (إله أبيك) (مسلمون) منقادون (خلت) مضت (كسبت) جمعت (تسئلون) تطالبون (يعملون) يفعلون .

المعنى :

بعد أن أخبر الله بنى إسرائيل بما كان من وصية إبراهيم لنافلته يعقوب قال لهم (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أى هل سمعتم بأمر هذه الوصية ، أم هل شهدتم بالذات أو بواسطة آبائكم يوم وفاة يعقوب (إذ قال لبنيه) الأسباط (ما تعبدون من بعدى) أى لمن تلجئون ومن تدعون من بعدى (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) أى ندعو بمثل ما كان يدعو آباؤك ونلجأ إلى من كانوا يلجئون إليه (إلها واحدا) لا نعبد غيره ولا نشرك معه سواه (ونحن له مسلمون) طائعون منقادون (تلك أمة) أى هذه وصية يعقوب لأبنائه ، وتلك أمة (قد خلت لها ما كسبت) من عمل تجزى به (ولكم ما كسبتم) من عمل ستجزون به ولا يجزى أحد بعمل غيره (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أى ولا يسئلون عن أعمالكم فلا ينتفع أحد منكم بعمل غيره ولا يتضرر منه .

المغزى :

نبه الله اليهود بهاتين الآيتين إلى ما يأتى :—

(١) إن يعقوب جدهم أوصاهم باتباع ملة إبراهيم التى كان عليها والتى دعا ربه أن يحييها على يد واحد من نسل إسماعيل وأنه أخذ عليهم بذلك عهدا عند وفاته .

(٢) لا يكفى فى الإيمان مجرد تقليد الآباء بل لا بد فيه من القناعة بثبوت الوحدانية لله وحده ونفى العبادة عن سواه .

(٣) أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء ولا يعذبون بكفرهم، فيجب أن يمحوا من أذهانهم فكرة الاعتماد على صلاح آبائهم، وأنه لا يعذب فى النار إلا من عبد آباؤه العجل على زعمهم .

الحكم :

يجب أن يتبع المرء إيمانه بالعمل الصالح، واستنتج العلماء من قوله تعالى (إلهك وإله آبائك) حكما هو أن الجد يعتبر أبا، ويترتب على هذا أنه يحجب الإخوة والأخوات للأب والأم أو لأب من الميراث، وهذا قول أبى بكر الصديق وابن عباس وعائشة رضى الله عنهم، وتابعهم فى ذلك أبو حنيفة . وقال آخرون إنه لا يعتبر أبا فلا يحجبهم وإنما يرث معهم، وهذا قول عمر وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت رضى الله عنهم، وتابعهم فيه الشافعى ومالك وأبو يوسف ومحمد، وقال الشافعى : إن للجد حق الاختيار إما المقاسمة معهم أو ثلث جميع المال ثم الباقى للإخوة والأخوات « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ

مِنْ رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ (١٣٨) .

اللفظ :

(هودا) جمع هائد : اليهود (نصارى) أتباع عيسى (تهتدوا) تصلون إلى الطريق المستقيم (ملة): شريعة ، وقرئ (ملة) بضم التاء (حنيفا) الحنيف المائل ولقب إبراهيم بذلك لأنه مال بمفرده عن الطريق التى كان عليها قومه وهى الكفر إلى الإيمان ، لذلك أطلق الحنيف فى اللغة على كل من كان على دين ابراهيم (المشركين) الذين يجعلون مع الله إلها آخر (أنزل) جاء من أعلى (الأسباط) جمع سبط ، وهو ابن الابن (نفرق) نفصل (مسلمون) متبعون دين الإسلام (اهتدوا) سلكوا الطريق (تولوا) أعرضوا (شقاق) تخالف (يكفيكهم) يمنع عنكم أذاهم (صبغة) ما يلون به (أحسن) أجمل (عابدون) خاضعون .

المعنى :

بعد أن ذكر الله بنى إسرائيل بفضائل إبراهيم عرّض بذكر أنواع من الشبه التى يروجونها ضد الإسلام ، فحكى عنهم أولا ما يقولونه من أقوال لا مستند لهم فيها إلا مجرد إصرارهم على تقليد آبائهم حيث قال (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) فأجابهم على هذا سبحانه

وتعالى بقوله (قل بل ملة إبراهيم) أى فإن كان ولابد من تقليد الآباء من غير تدبر فإن ملة إبراهيم أحق بالتقليد ، لأنه رأس السلالة وملته لانزاع أنها ملة قائمة على أساس صحيح ، وقد كان إبراهيم (حنيفا) متجافيا عن كل دين لا صحة له (وما كان من المشركين) ولم يكن بالذى يشرك مع الله إلها آخر بل كان يدعو إلى الصراط السوى (قولوا) أى وهذا لا يكلفكم إلا أن تقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) فكل هؤلاء آباؤكم وتقليدهم أفضل من تقليد غيرهم والإيمان بهم إيمان بالله (وما أوتى) أى وقولوا أيضا آمنا بما أوتى (موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) من الكتب جميعها (لا نفرق بين أحد منهم) فلا ينبغى أن نؤمن ببعضهم دون البعض الآخر لأنهم جميعا داعون إلى توحيد الله لا إلى آلهة متعددة (ونحن له مسلمون) وهذا هو المنطق الصحيح والقول العدل ما دمتم تعترفون بوجود الله والرسالة ، اللهم إلا إذا كنتم تقولون إنكم لا تعبدون إلا موسى بشخصه أو أنكم لا تسلمون بوجود الله فتلك مسئلة أخرى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) من الإيمان بالله وحده وبجميع الكتب المنزلة والرسل أجمعين (فقد اهتدوا) أى فقد اتفقوا معكم فى الإيمان لأن الإسلام لا يدعو لغير هذا (وإن تولوا) عن الاتفاق معكم على هذا الأساس والرجوع إلى أصل دين الأنبياء (فإنما هم فى شقاق) أى فاعلموا أنهم يبيتون لكم العداء وسيعملون على مخالفتكم بشتى الوسائل ولكن لا أهمية لهم (فسيكفيكهم الله) أى سيكفيكهم الله إيذاءهم ويؤيد دعوتكم وينصركم عليهم ما دمتم مؤيدين لهذا الدين وعاملين على رفع مناره (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بما يبيتون ، وحسبكم

أن ما دعونا كم إليه من الإيمان بالله وما أنزل على الرسل كافة ما كان إلا (صبغة الله) التى تكسب المتمسك بها صبغة ثابتة لا تتغير (ومن أحسن من الله صبغة) فكل صبغة معرضة للتبديل والتغيير إلا صبغة الله فهى ثابتة (ونحن له عابدون) أى وما دمنا عابدين له فما أحرانا أن نصبغ بصبغته ونكون أهلا لملته التى كان عليها .

المغزى :

تدل هذه الآيات على ما يأتى :—

(١) لا ينبغى أخذ عقائد الدين من غير الأنبياء والمرسلين .

(٢) أن من تمسك بالدين أو بالحق واعتصم بعروة الصدق لا يضيره تألب الظالمين عليه .

الحكم :

وجوب نشر الدعوة الإسلامية بمختلف الأساليب والألوان والحجج والبراهين سواء قبلت أو لم يؤخذ بها .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ، قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ

اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) .

اللفظ :

(تحاجوننا) تجادلوننا (أعمالنا) ما نصنعه (مخلصون) سالمون من الشوائب (تقولون) تتحدثون ، وقرئ (يقولون) (أظلم) أكثر انتقاصا للحق (كتم) أخفى (شهادة) الخبر القاطع (غافل) ساه وتارك (خلت) مضت (كسبت) جمعت (تسئلون) تطالبون (يعملون) يصنعون ، وقرئ (يعلمون) .

المعنى :

النوع الثانى من الشبه التى كان يرجوها خصوم الإسلام الطاعنون فيه وفى مقدمتهم بنو إسرائيل زعمهم أنهم أولى الناس بالحق والنبوة لتقدم النبوة فيهم ولأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فأمر الله نبيه بأن يقصر البحث معهم فى مثل هذه الادعاءات بقوله تعالى (قل أتحاجوننا فى الله) تجادلوننا فى أن الله اصطفى رسوله من العرب دونكم وتقولون إن النبوة خصصت فيكم (وهو ربنا وربكم) والحال أنه لا دليل لكم على هذا فهو ربنا كما هو ربكم ولا دليل على إيثاركم بالنبوة دوننا (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى وكما أنكم تعبدونه فنحن أيضا نعبده (ونحن له مخلصون) أى ونمتاز عليكم بإخلاص العبادة لله وحده ولا غاية لنا غير رضاه

بخلافكم أنتم ، والدليل على ذلك أنكم لا تذعنون بالرسالة ولا تتبعون من الأنبياء إلا من يروق لكم ومن يكون منكم على زعمكم، وفى هذا ما فيه من الأنانية وعصبية الجاهلية بينما نؤمن نحن بجميع الأنبياء والرسل باعتبارهم رسلا من عند الله سواء كانوا منا أو منكم .

النوع الثالث من الشبه التى كان يروجها خصوم الإسلام الطاعنون فيه وفى مقدمتهم بنو إسرائيل زعمهم أن إبراهيم وأبناءه كانوا على ملتهم فعرّض الله سبحانه وتعالى بزعمهم هذا حيث قال (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى) وهو زعم ظاهر الفساد من تلقاء نفسه فكيف يكون المتقدم معتنقا لملة المتأخر ومع ذلك فقد رد الله عليهم بقوله (قل) يا محمد (ءأنتم أعلم أم الله) أى فإن قالوا بأن الله أعلم منهم فقد وجب أن يصدقوا ما أخبروا به على لسان إبراهيم ، وإن قالوا بأن الله قد أخبرهم بغير هذا فليبرهنوا على دعواهم وليقدموا مالديهم من شهادة (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) أى وإن كتموها ولم يصرحوا بها اعتبروا من الظالمين ، لأن كتمان المرء الشهادة من حيث هى ظلم ، فكيف بها إذا كانت بشىء صدر من الله ومن الواجب إذاعته فى خلقه (وما الله بغافل عما تعملون) أى وقل لهم يا محمد إن الله ليس بغافل عن هذه المناورات وهذا التعسف الذى لا مقصد لكم فيه إلا التخلص من اتباع هذا الدين القويم (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أى واقصروا البحث فى وصف أولئك الأنبياء وانظروا فيما دعا إليه محمد بن عبد الله فإن ذلك أجدى لكم وأنفع فإنكم لا تسئلون يومئذ إلا عن ما كنتم تعملون .

المغزى :

تحذرنا هذه الآيات من عدة أمور :

(١) التحكم فى توجيه فضل الله إلى أمة أو شخص بغير دليل منه .

(٢) التسرع فى إصدار الأحكام بدون تثبت ومن غير علم صحيح .

(٣) كتمان الشهادة وعدم الإقرار بالحق .

(٤) الخوض فى شأن الأنبياء والرسل السابقين .

الحكم :

وجوب الاتباع والتقيد بما جاءنا من عند الله فى كل أمر وعدم جواز الخوض فيما لا علم لنا به .

بحمد الله وحسن توفيقه قد كمل طبع الجزء الأول من تفسيرنا هذا فى غرة شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٦ هجرية الموافق ١٩ من شهر يوليو سنة ١٩٤٧ ميلاديه وسيصدر الجزء الثانى إن شاء الله تعالى فى أوائل شهر شوال من عامنا هذا وبه دليل القبلة من عموم البلاد والله ولى التوفيق ؟

المؤلف

الخطيب

فهرس الجزء الأول

الصفحة	موضوع البحث
٢	تقرب
٣	هذا بلاغ
٤	مقدمة
١٥	حقيقة القرءان ومعجزاته
١٦	القرءان كلام الله
١٧	وسيلة النطق بكلام الله
١٨	العقيدة فى كلام الله
١٩	الاستواء فى كلام الله
٢٠	العلو فى كلام الله
٢٠	الصفات فى كلام الله
٢٢	الرسول وكلام الله
٢٢	الصحابة وكلام الله
٢٣	الأولياء وكلام الله
٢٤	المجتهدون وكلام الله
٢٤	السنة وكلام الله
٢٥	هدى القرءان
٢٦	دروس العلم فى كلام الله
٢٧	الآيات الكونية فى كلام الله
٢٧	هداية الرسل وكلام الله

الصفحة	موضوع البحث
٢٨	القوى الخفية وكلام الله
٣٠	المخترعون فى كلام الله
٣١	التفكير فى آيات الله
٣٢	القوى الفعالة فى كلام الله
٣٣	صلة العبد بالله
٣٤	محبة العبد لله
٣٦	تقوى الله
٣٦	الإخلاص لله
٣٧	وسائل الرزق فى كتاب الله
٣٨	الدعاء فى كلام الله
٣٩	الثقة بالله
٤١	تجنب الشك
٤٢	تكرار الدعاء
٤٣	ترقب الإجابة
٤٥	بذل الجهود
٤٥	حضور القلب
٤٦	وجوه التفسير
٤٩	سورة الفاتحة
٥٥	مقاصد الفاتحة

الصفحة	موضوع البحث
٥٧	سورة البقرة
٥٧	أسماء السور
٥٨	المتأهلون للهداية
٦٢	من لا أمل فى هدايتهم
٦٥	المنافقون
٧٤	الدعوة إلى الله
٧٨	الإيمان بالقرءان والرسول
٨١	الجنة وثمراتها
٨٣	مضرب الأمثال فى القرءان
٨٥	من هم الخاسرون ؟
٨٨	تطورات الحياة والموت
٨٨	تسخير الكائنات للانسان
٩١	خلافة آدم فى الأرض
٩٢	أول درس من الخالق للمخلوق
٩٣	تفضيل آدم على الملائكة
٩٧	أسباب هبوط آدم
٩٩	دعوة بنى إسرائيل إلى الإيمان
١٠٢	معالجة النفس بالصبر والصلاة
١٠٤	محاسبة المرء لنفسه
١٠٦	تنكيل فرعون ببنى إسرائيل
١٠٨	إنقاذ بنى إسرائيل
١١٠	عبادة بنى إسرائيل للعجل

الصفحة	موضوع البحث
١١٠	طلب بنى إسرائيل المستحيل
١١٤	تبديل بنى إسرائيل كلام الله
١١٧	تفضيل بنى إسرائيل للأدنى دون الأعلى
١٢٢	إيمان بنى إسرائيل كان قسرا
١٢٤	حيل بنى إسرائيل
١٢٦	تردد بنى إسرائيل فى تنفيذ الأوامر
١٢٩	تشكك بنى إسرائيل فى علم الله بالحقائق
١٣٣	تعمد بنى إسرائيل تحريف الكتاب
١٣٣	إظهار بنى إسرائيل ما لا يبطنون
١٣٣	تمسك بنى إسرائيل بالظنون والأوهام
١٣٧	تحكم بنى إسرائيل فى مصيرهم
١٤٠	عدم تمسك بنى إسرائيل بشريعتهم
١٤٢	كبرياء بنى إسرائيل
١٤٣	تناقض بنى إسرائيل فى الأقوال والأفعال
١٤٨	حسد بنى إسرائيل

الصفحة	موضوع البحث
١٤٩	موازبة بنى إسرائيل ومغالطتهم
١٥١	عناد بنى إسرائيل
١٥١	لجاج بنى إسرائيل
١٥٣	كذب بنى إسرائيل على أنفسهم
١٥٤	تهافت بنى إسرائيل على حب الحياة
١٥٧	خصومة بنى إسرائيل لكل داع إلى الحق
١٥٩	مكابرة بنى إسرائيل للحق
١٦١	نبذ بنى اسرائيل للدين عند الاقتضاء
١٦٢	عدم تورع بنى إسرائيل عن اتيان الطرق غير المشروعة فى سبيل أغراضهم
١٦٦	مطاعن بنى إسرائيل فى رسول الله
١٦٨	مطاعن بنى إسرائيل الله فى القرءان
١٧١	مطاعن بنى اسرائيل فى حقيقة الاسلام
١٧٤	مطاعن بنى إسرائيل فى مستقبل المسلمين
١٧٦	مطاعن بنى إسرائيل فى قبلة الإسلام
١٧٩	مطاعن بنى إسرائيل فى أساس التوحيد
١٨١	مطاعن بنى إسرائيل فى الدعوة الإسلامية
١٨٣	لا سبيل إلى إقناع اليهود والنصارى بالحق واستمالتهم اليه
١٨٦	سر عظمة إبراهيم ـ القدوة الصالحة
١٨٨	تطهير إبراهيم للبيت الحرام
١٩٠	دعاء إبراهيم للبلد الحرام وأهله
١٩٢	بناء إبراهيم قواعد البيت

الصفحة	موضوع البحث
١٩٣	رفع إبراهيم لقواعد البيت
١٩٣	دعاء إبراهيم بإيجاد أمة مسلمة
١٩٥	الإسلام وإبراهيم
١٩٦	وصية إبراهيم لبنيه بالإسلام
١٩٨	وصية يعقوب لبنيه بالإسلام
٢٠٠	إصرار اليهود على تقليد آبائهم
٢٠٣	زعم اليهود أنهم أولى الناس بالحق والنبوة
٢٠٤	زعم اليهود أن إبراهيم وأبناءه كانوا على ملتهم

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	٢	ليشفعكم	ليشفكم
١٧	٣	رغماتى	رغباتى
١٧	١٠	يجعل	يجل
١٧	١١	الأبيات	الآيات
١٧	١٩	مربيات	مريات
١٨	٦	التالوت	التالون
٢٣	٤	وميزات	أو ميزات
٢٩	٣	المخلوقات	المخلوق
٣٠	١١	الددروع	الدروع
٣٠	١٢	وكذلك	وكذاك
٣٦	١٢	وأرغبوا	وراغبوا
٦٢	١١	ولله فى كل شىء	وفى كل شىء له
٨٥	٦	عقد	عهد
١٦٤	١	بابتياعهم	ببيعهم
١٧١	٧	إخراجها	إخراجه

فهرس أحكام آيات القرءان

الصفحة	موضوع البحث
٥٢	البسملة
٥٦	فاتحة الكتاب
٦١	تعميم دراسة القرءان
٦٣	نشر الدعوة الإسلامية
٦٩	هل يجوز الحكم بمجرد العلم؟
٦٩	هل للقاضى وقف التنفيذ ؟
٧٣	النفاق
٧٧	الأيمان المعلقة
٨٠	القرءان كلام الله
٨٢	تعليق العتق على البشرى
٨٤	ضرب الأمثلة فى القرءان
٨٦	نقض العهد وقطيعة الرحم
٨٩	الأصل فى كل شىء الحل
٩٢	التفويض لله فيما يستعصى فهمه
٩٦	النهى الموجه الى شخصين
٩٨	الحذر من غواية إبليس
١٠١	الجهر بالحق
١٠٣	الاهتداء بهدى القرءان
١٠٥	تذكر النعم وذكر الآخرة
١٠٧	الصبر وترقب الفرج
١٠٩	معرفة الله
١١٢	التوبة من المعاصى
١١٤	تبديل الأقوال المنصوص عليها
١١٦	طلب السقيا عند الجدب
١١٩	كفر المنعم والتبرم من قضاء الله
١٢١	الحكم على أحد بعينه أنه من أهل الجنة أو النار
١٢٣	التفكر فى اعلاء الله
١٢٥	الاحتيال
١٢٨	شرع من قبلنا شرع لنا
١٣١	علم الله الشامل
١٣٤	تحريف كلام الله
١٣٥	الأخذ بالظن
١٣٥	التقليد فى العقائد
١٣٦	الكذب على الله بترويج البدع
١٣٦	أخذ المال على الباطل

الصفحة	موضوع البحث
١٣٩	التحرى فى مستند الأحكام
١٤١	تعظيم الوالدين
١٤١	من هم ذوى القربى ؟
١٤٥	الاعتداء على الغير
١٤٥	التصرف فى الأحكام بحسب الأهواء
١٤٧	الاحتكام للعاطفة
١٤٧	الاحتكام للكبرياء
١٤٩	الحسد
١٥٠	الصدق والصراحة
١٥٢	الرضوخ للحق
١٥٤	إدعاء الإنسان ما ليس له
١٥٦	التفانى فى حب الدنيا
١٥٨	ذم الملائكة وكل داع للحق
١٦٠	المكابرة ونقض العهد
١٦٤	السحر وما يؤخذ عليه من أجر
١٦٧	القذف بالكناية
١٦٧	ترجمة القرءان فى الصلاة
١٧٠	النسخ فى الأحكام
١٧٣	الحسد
١٧٥	التحكم فى مصير الأمم
١٧٧	المساجد وصد الناس عنها
١٨٠	نفى نسبة الولد إلى الله
١٨٠	من يعتق إذا امتلك
١٨٢	آيات الله ومعجزات الرسل
١٨٤	الجدل فى الدين
١٨٧	اتخاذ العظة من مواقف إبراهيم
١٨٧	العدالة فى الإمام
١٩٠	المحافظة على الأمن فى الحرم
١٩١	إقصاء المعابد غير الإسلامية عن أرض الحرم
١٩٤	تقدير العاملين
١٩٧	اتباع ملة إبراهيم واتباع وصيته
١٩٩	هل يحجب الجد الأخوة والأخوات
٢٠٢	نشر الدعوة الإسلامية
٢٠٥	الاتباع والتقيد بما جاء من عند الله

مطبوعات للمؤلف

تطلب من المؤلف شارع الدقى رقم ١٢ بالجيزة تليفون ٩٦٨١٦

سيرة سيد ولد آدم

تحفة شعرية جمعت كل ما ينبغى عرفانه عن حياة النبى الكريم الروحية والخلقية والعلمية والعملية والاجتماعية ، ومدرسته والشهادات التى يحملها ومبادئه السياسية وغاياته السلمية وخططه الحربية وتدابيره العسكرية ومدنيته وحضارته ، والملاجئ والمصحات وجماعة الإسعاف والنظم الإدارية فى عهده . كل ذلك فى ألفى بيت مصدرة بكلمة قيمة لصاحب المعالى محمد حسين هيكل باشا .

تائية الخطيب

خمسة آلاف بيت فى سر تأخر المسلمين وحكمة التشريع الإسلامى ومبادئ الإسلام وغاياته والاستغاثة الكبرى مصدره بكلمة الدكتور طه حسين بك .

مناجاة لله

قصيدتان فى مجلد واحد إحداهما فى التوحيد الخالص والإيمان الصادق والتصوف الصحيح ، والأخرى فى عقيدة السلف الصالح .

نهج البردة وهمزية الخطيب

قصيدتان فى حب الله ورسوله ومديحه عليه أفضل الصلاة والسلام

تحية للحبيب

ثلاث قصائد فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم تبين مشروعية الزيارة وما ينبغى أن يتبعه المسلمون فى أثنائها وقد تضمنت توسلا بأسماء الله الحسنى كل ذلك فى أسلوب سهل يسر المحبين .

COLUMBIA UNIVERSITY
0026814811

893.7K84
DK4
v.1

MAR 23 1961